صور من الاستهزاء بالرسل

وأتباعهم، وإرهابهم، ونصر اللّه تعالي لهم

البحث الخامس المقدم من ضمن البحوث الخمسة لنيل درجة الأستاذية.

د / عَبْدُهُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الحُمَيّدِيُ

❖ مخلص البحث

لقد تناول هذا البحث أمرين اثنتين:

- الأمر الأول: نماذج من النصوص القرآنية التي ورد فيها الاستهزاء بالرسل –عليهم الصلاة والسلام– وأتباعهم من أقوامهم، بدأ برسول الله نوح ﷺ، وانتهاءً بخاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ على اختلاف أساليبهم، وألفاظهم التي دأبوا عليها.
- الأمر الثاني: نماذج من النصوص القرآنية التي ورد فيها الإخراج القهري والقسري للرسل –عليهم الصلاة والسلام– وأتباعهم من أقوامهم وفي مقدمتهم الملأ من أتباع كل رسول بدأً بنبي الله تعالى نوح ﷺ، وانتهاءً بخاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ، وهو قسمان:

١) تهديد بالرجم، أو الإخراج، أو القتل.

٢) إخراج لبعضهم بالفعل.

❖ المقدمة

الحمد لله الذي خلق نبيه محمداً ﷺ مُبَرَأً من كل خُلُقٍ ذميم، ووصفه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ القلم: ٤، فصدق فيه قول حسان بن ثابت ﷺ، من بحر الوافر:

خُلِقْتَ مبرأ من كل عيبٍ *** كأنك قد خُلِقْتَ كما تشاءُ.[1]

و الصلاة والسلام عليه أفضل الصلوات، وأجمل التسليم، وعلى آله وصحبه الذين ترفعوا عن كل خُلُقٍ مذموم، وكانوا خير القرون بشهادة النبي المعصوم ﷺ. وبذلك برؤوا من كل أسباب السخرية والاستهزاء التي يتنزه عنها كل كريم، ويتصف بها كل لئيم، **وبعد**، فإن السخرية والاستهزاء، وتهديد أصحاب الحق ليس من دأب أصحاب الشيم، ولا من عادات أهل الكرم، بل هي من عادات اللؤماء والمفلسين بالحجج والبراهين، فيستبدلون قذاعة اللسان عن الحجج القوية وساطع البرهان، كما سجله عليهم القرآن الكريم، ونحن -إن شاء الله تعالى- سنتولى هذا الأمر بواضح البيان من خلال بحثنا المقدم —إن شاء الله الملك الدَيَّان.

❖ خطتي في البحث

هذا البحث يتكون من موضوعين:

أولاً: استعراض آيات القرآن الكريم؛ للوقوف على بعض النصوص التي تذكر استهزاء أقوام الرسل بهم، واستخراجها، والكلام عنها، وتناولها بالتحليل من عدة نواحٍ، وهي:

١. مجمل المعنى للنص.
٢. عناصر الاستهزاء أو التهديد.
٣. بيان العظة والعبرة.
٤. ثم النتيجة لما سبق ذكره من الاستهزاء، أو التهديد.

ثانياً: استعراض الآيات؛ لاستخراج النصوص التي ذَكَرَتْ الاستهزاء ثم القسر والقهر في حق الرسل —عليهم السلام- من أقوامهم سواءً كان تهديداً أم تنفيذاً لذلك التهديد. ثم تناولها بالتحليل على غرار ما تناوله في نصوص الاستهزاء سابقاً.

---

١ هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، ديوان الصبابة، ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني (٧٢٥هـ،٧٧٦هـ)، ص٤٦، برنامج موسوعة الشعر العربي، الإصدار الأول، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٩م.

ثالثاً: ختم البحث بخاتمة توضح ما جرى من أقوام الرسل –عليهم السلام– معهم، واتفاق جميع الأقوام على هذا النهج.

❖ منهجي في البحث

اعتمدت في هذا البحث المنهج الاستقرائي على النحو الآتي:

أولاً: تتبع بعض الآيات التي تضمنت السخرية والاستهزاء بالرسل وأتباعهم.

ثانياً: لقد آثرت كتابة أبرز النصوص وأطولها –إن وجدت– وتركت ما سواها.

ثالثاً: سلكت في تحليل هذه النصوص بيان مجمل المعنى في الجمل.

رابعاً: بينت ما فيها من عناصر مهمة تضمنها النص.

خامساً: بينت مواضع العظة والعبرة في كل نص بحسب الطاقة.

سادساً: البحث عن النتيجة لكل ما سبق من النصوص لأقوام كل نبي في باب الاستهزاء، أو التهديد، أو الرجم، أو الإخراج، ثم كتابتها في نهاية كل بحث.

❖ موضوعا البحث:

• الموضوع الأول من البحث:

الاستهزاء بالدعاة إلى الله تعالى، وتشويه سمعتهم، ونصر الله تعالى لهم.

❖ نبي الله نوح عليه السلام:

الحمد لله، وبعد، فأول رسول أرسله الله إلى الناس، وحصل بينه وبين قومه تحدٍ و خصام وجدال – هو نبي الله نوح عليه السلام–ولم يحصل لمن سبقه ذلك.

وقد ذكر الله تعالى هذا في عدة مواضع من القرن الكريم، فمنها: ما ذكره الله في سورة هود عليه السلام – وهي أطول قصة سردها القرآن الكريم عن نوح عليه السلام مع قومه – حيث ذكرها في أربع وعشرين آية (٢٥-٤٩). وسنأخذ من مقاطعها ما يتعلق بعنوان البحث.

من الاستهزاء والسخرية بنوح عليه السلام، ومن تبعه:

قول الله تعالى – على لسانهم بقصد الاستهزاء: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾هود: ٢٧.

مجمل المعنى:

فهذا المقطع من الآية الكريمة يبين الاستهزاء، والنظرة الدونية إلى من اتبع نوحاً عليه السلام بأنهم أراذل القوم – أي أخساؤنا وأدانينا – يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك، إذ ليس لهم رزانة عقل، ولا أصالة رأي. وقد كان ذلك منهم في بادئ الرأي، أي ظاهره من غير تعمد منهم، وقد كان هذا بناءً على ظنهم الفاسد أن الفضل إنما يكون بكثرة الأموال، فقد استرذلوهم مع أنهم هم أولو الألباب الراجحة، فقد كان الأشراف عندهم من هم أكثر حظاً في الدنيا، أو من لهم جاه، ومال. ولقد ضل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله، وإنما يبعده ولا يرفعه من وضعه. والأرذل عندهم من حرمها، ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة، كما ورد به الحديث "**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة؛ ما سقى كافراً منها شربة ماء**"[1].

---

١ نسبه السيوطي في الجامع الصغير إلى المختارة للضياء المقدسي، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، ورمز =

عناصر الشبه:

١. العنصر الأول: ما أنت إلا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة، ولو كان كذلك لرأيناه، ولكن لا نراه.
٢. العنصر الثاني: أن الذين اتبعوك أراذلنا -أي أخساؤنا وأدانينا- يعنون أنهم لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل، ولا أصالة رأي. وكان ذلك منهم بادي الرأي، أي من دون تعمق.
٣. العنصر الثالث: ﴿...وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ...﴾. أي أن اتباعهم لك لا يدل على نبوتك، ولا يجديهم فضيلةٌ تستتبع اتباعنا لكم.
٤. العنصر الرابع: ﴿...بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾...﴾، فأنت كاذب في دعوى النبوة وهم كاذبون في تصديقك، وقد اقتصروا على الظن احترازاً منهم عن نسبتهم إلى المجازفة، ولم يجزموا بكذبهم؛ لأنهم يريدون فتح خط رجعة لو ظهر صدق نوح عليه السلام ومن تبعه فيظهروا كاذبين. وكلها كما يراها القارئ شبه لا تقوم بها حجة على نوحٍ عليه السلام.[1]

العظة والعبرة:

=لصحته. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد المدعو عبد الرؤف المنياوي، جـ٥، صـ٣٢٣، ط الأولى، مطبعة مصطفى محمد، شارع محمد على، مصر، ١٣٥٦-١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م. ورواه الترمذي في هوان الدنيا على الله عز وجل، رقم ٢٣٢٠. وأخرجه أبو نعيم في الحلقة (٢٥٣/٣) كما ذكره في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لإمام الحافظ أبي العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، جـ٢، صـ٢٦، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧-٥٣٨هـ)، جـ٢، صـ٣٦٨. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان

١ تفسير أبي السعود (أرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، جـ٣، صـ٣٠٤-٣٠٥، ط الأولى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، جـ٩، صـ٢٣-٢٤، ط الثالثة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

تمثلت العظة والعبرة في إغراق الله تعالى لقوم نوح العصاة وفي مقدمتهم ولده كما حكى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ ...وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾هود: ٤٢ – ٤٣. فهذه كانت هي العظة والعبرة، وهي أيضاً النتيجة الحاسمة لاستئصال شأفة قوم نوح العصاة المجرمين عن بكرة أبيهم. فسبحان القوي القهار الذي أملى لهم ألف إلا خمسين عاماً، فهو الحليم الذي لا يعجل، ولكن أخذه أليم شديد.

و من الاستهزاء بالرسل:

سخرية قوم نوح من نوح عليه السلام، قال الله تعالى على لسانهم:﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾هود: ٣٢ – ٣٣.

مجمل المعنى:

بعد أن حاج نوح عليه السلام قومه في الآيات السابقات على هذه الآية بدأ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ هود: ٢٥، إلى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾هود: ٣٢ – ٣٣، حاجهم في هذه الآيات بما هو معهود في الأنبياء من جميل القول، ولطيف التأني، وحسن العرض، والأخذ بالرفق واللين، وأقام لهم الأدلة المقنعة على صدق دعوته. لكن ذلك لم يعجبهم، وردوا عليه رداً فيه غلظة وجفوة، وقالوا له: يا نوح إنك خاصمتنا، وبالغت في مخاصمتنا، ونحن غير مستعدين للاستمرار في مناقشتك. فإن كنت صادقاً في دعوتك فهات ما تهددنا به من العذاب.

رد عليهم نوح عليه السلام: لست أنا الذي أنزل عليكم العذاب وإنما الذي ينزله عليكم هو الله سبحانه وتعالى، فإذا أردتم أن يعذبكم في الدنيا عذبكم، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا بكثرتكم؛ لأن

الله تعالى قادر لا يُغْلَبُ، ولن تستطيعوا أن تفلتوا من عذابه مهما حاولتم.[1]

عناصر الشبهة:

عنصر السخرية في قولهم: ﴿ ...فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾؛ لأن معناها أنهم غير مبالين به مهما أوعد، وأرغى، وأزبد.

و لكن نوحاً عليه السلام لم يتركهم يتنفسون الصعداء بهذا القول، بل باشرهم بالرد السريع بقوله: ﴿ ...إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ هود: ٣٣، أي ما أنتم بمعجزين لله أن يعاجلكم بعقابه بالهرب، أو المدافعة كما تدافعونني بالكلام.[2] فليس من الله مهرب، ولا مفر من عذابه سبحانه.

و قد استخدموا الوعد بدلاً عن الوعيد؛ إغراقاً في الاستمرار بالاستهزاء، فكأنهم يقولون: إن وعيدك سينتهي إلى وعد بالخير مستقبلاً، وإنما قلنا هذا؛ لأن العرب – غالباً – تستخدم الوعد في الخير، والوعيد في الشر، كما قال العباب –و اسمه العديل بن الفرخ العجلي– عندما طلبه الحجاج، فهرب منه وهجاه، من بحر الرجز:

أَوْعَدَنِي بِالسَّجْنِ، والأَدَاهِم *** رِجْلي فِرِجْلي شَثْنَةٌ المناسِمِ.

فالسجن،و الأداهم (القيود) شر؛ ولهذا جاء بالفعل الرباعي (أوعدني)، والله أعلم.[3]

و قد أتوا ب"إن" الشرطية التي تدل على الشك في تحقيق الشرط، وهذا دليل على عدم جزمهم بكذب نوح عليه السلام، ولو كانوا جازمين بذلك لقالوا: "إذا كنت من الصادقين"، وذلك باستخدامهم أداة الشرط التي تدل على جزم المتكلم بوقوع الشرط (إذا) وإن لم تكن جازمة للفعل. وقد كان الرد من نوح عليه السلام سريعاً بأنه لا يمكنه ذلك، وإنما الأمر بيد الله تعالى؛ ليؤكد لهم صدق رسالته من الله سبحانه، فقال:﴿ ...إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ... ﴾.

---

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الثالث، جـ٣، صـ٣٠، مطابع قطر الوطنية، قطر.

٢ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، جـ٣، صـ٣٠٨.

٣ شرح ابن عقيل مع منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني (٦٩٨هـ، ٧٦٩هـ)، جـ٣، صـ٢٥١، ط الخامسة عشرة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، ذو القعدة ١٣٨٦هـ، مارس ١٩٦٧م.

العظة والعبرة:

هي إنجاء نوح عليه السلام ومن معه على السفينة من الغرق، وإهلاك قومه بالغرق كما قال تعالى: ﴿ ...وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾هود: ٤٣، وهذه هي سنة الله تعالى في المعاندين للرسل وهي إهلاكهم بسبب عنادهم وكفرهم.

و من السخرية بنبي الله نوح عليه السلام:

ما ذكره القرآن الكريم في هذه القصة من سورة هود عليه السلام وهو قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾هود: ٣٨ ــ ٣٩.

مجمل المعنى:

بدأ نوح عليه السلام يصنع السفينة، وكان تحوله من—داعية يدعو إلى الإيمان بالله وتوحيده— إلى نجار يصنع سفينة سبباً في أن الكافرين من قومه إذا مروا به عجبوا منه، واستنكروا فعله، وسخروا منه؛ لأنه يصنع على الأرض سفينة، ويقولون له: لقد صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً، فكان يرد عليهم: إن كنتم تستهزئون بي وقومي الآن فإنا نهزأ بكم غداً؛ لأني أعلم ما أنتم عليه من غي وضلال، وأعلم ما ستصيرون إليه من تعذيب، وإهلاك، وسوف تعرفون أينا يحل به الخزي، ويقع عليه العار، ويعذب العذاب المقيم الدائم الذي لا فكاك عنه.

عناصر الشبه:

١. العنصر الأول: في تكرار مرور قومه عليه وهو يصنع السفينة فهو نوع من السخرية لكونهم يكثرون المرور عليه، ويرددون النظر إليه. وهذا ما تضمنته أداة الشرط غير الجازمة ﴿كُلَّمَا ﴾، وفعل الشرط ﴿مَرَّ ﴾.

٢. العنصر الثاني: جواب الشرط﴿ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ أي استهزؤوا به. فهو من عناصر الاستهزاء بنوح عليه السلام.

العظة والعبرة:

ففي هذا المقطع السخرية بنوح عليه السلام وحده لأن صنع السفينة يختص به، وسخريتهم ناتجة عن جهلهم بحكمة صنع السفينة على صحراء يابسة ليس فيها ماء، ولم يَدُر في خلدهم أن الله

تعالى سيوجه الماء الذي يجعلها تطفو على سطحه عن قريب من الأيام.

كما أن سخريتهم ناتجة أيضاً عن عدم تقديرهم لنبي الله نوح عليه السلام، وعدم معرفتهم بأن صنعه للسفينة لم يكن اختياراً له لشهوة التسلي بل كان بأمر الله تعالى له: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ... ﴾هود: ٣٧.

و لو كان لهم فكر سديد لم يعترضوا على نوح عليه السلام ولاحترموا تصرفه، وعلموا أنه لا يفعل مثل هذا عبثاً؛ ولكن عمى البصيرة هو الذي لا يمنحها التفكير فيما يطلع عليه. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ ...فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج: ٤٦ .

و لكن رسول الله نوح عليه السلام عاجلهم بالرد الحاسم السريع الذي لا خوف معه، ولا تلعثم؛ لأنه معتز بربه فقال: ﴿ ...إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ... ﴾.

و في هذا تشريع واضح لمقابلة الإساءة بمثلها، وهو الذي يؤيده شرعنا بقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا... ﴾يونس: ٢٧، وأذن الله عز وجل بذلك في قوله:﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ ... ﴾النساء:١٤٨.

و من الاستهزاء بالرسل:

استهزاء الكافرين بنوح عليه السلام و عباد الله الصالحين، ووضع الشبهات ضدهم ما ذكره الله تعالى عنهم، قال تعالى:﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾المؤمنون: ٢٤ ــ ٢٥.

مجمل المعنى:

هو أن الكافرين من قوم نوح عليه السلام رأوا أن المماثل لهم بالبشرية لا يصلح لأن يمتاز عنهم بالاصطفاء بالرسالة، ودعوى نوح عليه السلام الرسالة هي مجرد طلب الفضل عليهم، والرياسة عليهم، كقوله:﴿ ...وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ... ﴾ يونس:٧٨، وزعموا أنه لا يصلح إلا إرسال ملائكة يتخاطبون معهم، وأن هذا أمر غريب عليهم ما سمعوا به من قبل؛ ولهذا قالوا: ﴿ ...وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ ﴾، وقد أرادوا دفع الحق بكل وسيلة، وبكل ما عندهم من غير تميز منهم بين صدق وكذب، فقد حكموا على نوح عليه السلام أنه مجنون، ولم

يفكروا أنه أرجح الناس عقلاً، وأرزنهم قولاً؛ ولهذا فضلوا الانتظار حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلوه.[1]

إذاً فهذا النص قد جمع بين الاستهزاء، والتهديد بإزالته عن الحياة؛ ليستريحوا منه. فلما راءهم قد أصروا على الكفر، والتكذيب، وتمادوا في الغواية والضلالة حتى يأس من إيمانهم بالكلية، وقد أوحى الله إليه ﴿... أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ... ﴾ هود: ٣٦، فقال: ﴿... رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾المؤمنون: ٢٦، إي بإهلاكهم بالمرة. فإنه حكاية إجمالية لقوله عليه السلام: ﴿... رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾نوح: ٢٦.[2]

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: كونه من البشر، والبشر لا يصلح لأن يرسل إلى مثله.
٢. العنصر الثاني: إرادته إظهار الفضل عليهم، وهو ليس أهلاً له —كما يزعمون.
٣. العنصر الثالث: أن الله تعالى لو شاء إرسال أحد لأنزل ملائكة إليهم؛ لإبلاغ الرسالة.
٤. العنصر الرابع: أنهم لم يسمعوا بهذا في أجدادهم السابقين، فادعاء نوح عليه السلام الرسالة بدعة غريبة.
٥. العنصر الخامس: ادعاءهم أنه رجل مجنون، والمجنون لا يوثق بكلامه، فضلاً عن أخذ الشرع عنه بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى، وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم في سورة القمر، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾القمر: ٩. وكلها شبه باطلة بفحواها ودلالتها غنية عن الرد.

العظة والعبرة:

١. على الدعاة إلى الله أن يتحملوا مثل هذا الأذى من أعداء الدعوة.
٢. عليهم أن لا يتزعزعوا عن مبادئهم، ومواقفهم خوفاً من الشبهات.

---

١ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، جـ٣، صـ١٨٥.

٢ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٤، صـ٤١١.

٣. عليهم أن يثقوا أن الله تعالى معهم، وناصرهم ثقة بوعده، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ غافر: ٥١.

٤. عليهم أن يثقوا أن دعوة الله تعالى هي الخالدة، وأن دعوة الباطل زاهقة، فقد قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسراء: ٨١، وقال سبحانه أيضاً: ﴿ ...فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ... ﴾ الرعد: ١٧.

النتيجة:

لقد كان قوم نوح يظنون أنهم بهذه الشبهة سيثنون الناس عن الإيمان بالله تعالى، واتباع رسوله. على الرغم من طول حوار نوح عليه السلام مع قومه، ولَدَادِهِمْ في الجدال ما أغنى عنهم شيئاً بل باؤوا بالفشل، وتم لنوح عليه السلام ما أراده من نجاح دعوته ولو بإيمان القيل كما قال تعالى: ﴿ ...وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ هود: ٤٠.

ما يفهم عن ثقافة هؤلاء القوم، ومن إليهم، الآتي:

١. أنهم يجهلون ميزان الكرم، والشرف، وأنه فهم سطحي لا ينم عن ثقافة عالية، ويرون ذلك في المال والجاه.

٢. أن الذي حملهم على هذا هو حقدهم الدفين، وتعصبهم الأعمى الذي لم يُبْن على يقين بل بُني على الحدس والتخمين، كما نطقوا به في قولهم: ﴿ ...بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾.

٣. أن القوم في قرارة أنفسم أن نوحاً عليه السلام وقومه على حق، ولذلك لم يجزموا بالحكم عليهم بالكذب؛ لكي لا ينالوا شدة اللوم على رميهم بالكذب، وفي الحقيقة أنهم براء من ذلك، فتعبيرهم بالظن؛ كي يجعلوا لهم خط رجعة عندما يلامون بأنهم ظنوا ظناً ولم يجزموا بذلك.

و يمكن تلخص النتيجة التي حلت بقوم نوح عليه السلام بالآتي:

١. عود أعدائهم خائبين عما كانوا يريدونه من الانتصار على نوح عليه السلام وأتباعه.

٢. انتصار نوح عليه السلام وأتباعه على عدوهم.

٣. إهلاك خصوم نوح عليه السلام وأتباعه؛ جزاءً لما صبر خلال ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾العنكبوت: ١٤.

و صدق الشاعر إذ يقول، من بحر البسيط:

الصَبْرُ صَبْرٌ فِي مَذَاقَتِهِ *** لَكِنْ عَوَاقِبَهُ أَحْلَى مِنْ العَسَلِ.

فلم تنجح السخرية في أن تحد من نشاط نوح عليه السلام في دعوته، بدليل رده عليهم. وهذه هي عادة أصحاب المبادئ الحقة أنهم أصحاب ثبات، وصمود عليها، فلم تزعزعهم عواصف الشبه، وبلبلة المرجفين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم المهتدون بقوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ... ﴾الأنعام: ٩٠، بعد ذكره عدداً من المرسلين، وفي مقدمتهم نوح عليه السلام، فواجب على الدعاة الاقتداء بهم عملاً بأمر الله تعالى، فإن فعلوا ذلك كان النجاح حليفهم. نسأل الله أن يجعلنا منهم، بمنه، وفضله، وكرمه، آمين!

و المهم من هذا كله معرفة محاربة أعداء الإسلام للدعاة، وفي مقدمتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام على مر الزمان وتعدد المكان، ولكنهم كما قال الأعشى أبو بصير-واسمه ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل، من بحر البسيط:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً؛ لِيُوْهِنَهَا * فَلَمْ يُضِرْهَا، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ.**[1]

❖ **نبي الله هود عليه السلام:**

و من الاستهزاء بالرسل:

سخرية أعداء الدعاة إلى الله تعالى –و في مقدمتهم رسلهم- قول أصحاب هود عليه السلام مستهزئين: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾الأعراف: ٦٦.

---

١ الأغاني، علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن هيثم المرواني الأموي القرشي المشهور بأبي فرج الأصفهاني (٢٨٤-٣٦٥هـ/ ٨٩٧-٩٦٧م)، صـ٣١٠٣، برنامج موسوعة الشعر العربي، الإصدار الأول، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ٢٠٠٩م.

مجمل المعنى:

انقسم قوم هود عليه السلام إلى فريقين: فريق قليل العدد، وهم الذين آمنوا بهود عليه السلام.

و فريق كثيري العدد كذب هوداً عليه السلام، ولم يؤمن به، ولم ينظر فيما جاء به من آيات، على أن ما يعبدون من الأصنام لا تليق بهم عبادته، وإنما الذي تجب عبادته هو الله تعالى وحده. وهذا هو الفريق الذي أغلظ لهودٍ عليه السلام، ورماه بالسفاهة والحمق؛ لأنه يريد أن يصرفهم عما كان يعبد آباؤهم من الأصنام إلى عباد إله آخر.

عناصر الشبهة:

عنصر الاستهزاء هو إطلاق لفظ السفاهة عليه، والتي هي خفة حِلْمٍ، وسخافة عقل؛ لأنه هجر دين قومه إلى دينٍ آخر، وتعبيرهم بقولهم﴿ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ مجاز أرادوا أنها متمكنة فيه غير منفكة عنه.[1] وهذا يدل على ما وصلوا إليه من الحقد.

العظة والعبرة:

العظة والعبرة هي التي ذكرها تعالى في آخر القصة (أية ٧٢)، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الأعراف: ٧٢.

إن هذه الآية تبين العظة والعبرة في جانب الذين آمنوا بالنجاة من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة. واستئصال الله تعالى جميع الذين لم يؤمنوا، ولم يُبْقِ منهم أحداً، فقد وقع عليهم ما أراده الله تعالى من عذاب. فانقطع عنهم المطر؛ حتى قحطوا، وجهدوا، فاستسقوا فلم يسقوا، واستغاثوا فلم يُغاثوا، ثم أرسل الله تعالى ريحاً شديدة الهبوب والبرد، واستمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام، فعصفت بهم، ونجى الله تعالى هوداً عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة منه، واستأصل القوم الكافرين فلم يُبْقِ منهم أحداً ؛ لأنهم كذبوا رَسُوْلَ الله، ولم يؤمنوا بما جاء به.

١الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، جـ٢، صـ١١٠.

و من الاستهزاء بالدعاة إلى الله:

ما ورد في قصة هود عليه السلام وقومه، من قولهم لهود عليه السلام في سورة الأعراف مستهزئين: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾الأعراف:٧٠- ٧١

مجمل المعنى:

بعد أن استخدم هود عليه السلام الملاينة، وذكرهم بنعم الله تعالى عليهم التي منها عمارة الأرض بعد أن باد قوم نوح من قبلهم؛ لأنهم كذبوا نبيهم عليه السلام، وذكرهم بأن الله تعالى منحهم أجساماً طولاً ضخاماً، وخصهم بهذه النعم، وأن في الاعتراف بها فلاحهم في الدنيا والآخرة، ولم يقتنعوا بذلك الرد المقنع المؤدب من هود عليه السلام. فظلوا يعترضون عليه وينهمكون ويسخرون منه، وينكرون عليه أنه جاءهم يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، ويدعوهم إلى ترك عبادة آلهتهم التي عبدها آباؤهم من قبل. إنه مشهد بائس لاستبعاد الواقع المألوف للقوالب والعقول. هذا الاستبعاد الذي سلب الإنسان خصائصه الأصلية: مزية التدبر، والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد. ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد أمثله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور.[1] ثم يبالغون في استهانتهم بدعوة هود عليه السلام ورسالته، ويطلبون إليه أن يأتيهم بما يهددهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يقول من أنهم إن لم يؤمنوا فسينزل بهم عذاب الله تعالى كما نزل على قوم نوح من قبل.

و لما لم يجد هود عليه السلام فائدة من النصح لهم، ولم يقتنعوا بما قدم لهم من أدلة وبراهين عن صدق رسالته، أخبرهم أن عذاب الله تعالى واقع بهم لا محالة، وأنهم لن يفلتوا من سخطه وغضبه. وأنكر عليهم أنهم يجادلونه في أسماء هذه الأصنام التي يعبدونها، ويناقشونه في أصنام لا تضر ولا تنفع، وما جعل الله تعالى لهم في عبادتهم إياها حجة يحتجون بها، ولا معذرة يركنون إليها إلا بطريقة التقليد، فقالوا: ﴿ ...وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ ... ﴾. والحقيقة أن العبادة لا تكون

---

١ في ظلال القرآن، سيد قط، المجلد الثالث، جـ٨، ١٣١١.

للمخلوق العاجز، وإنما يكون للخالق الذي يضر، وينفع، ويعطي، ويمنع، ويثيب، ويعاقب، ويحي، ويميت، ويبدي، ويعيد. ثم قال لهم: وما دمتم مصرين على كفركم، فانتظروا حكم الله تعالى فينا وفيكم، وتحديد مصيرنا. وإنا منتظرون مثل انتظاركم ليرى كل منا ما يصير إليه أمر الآخر.[1]

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: استبعادهم افراد الله تعالى بالعبادة؛ فهي في حقهم شبهة كبرى.
٢. العنصر الثاني: ترك عبادة الأصنام التي تعود آباؤهم عبادتها فهو أمر صعب عليهم، وهو أمر منكرٌ عندهم.
٣. العنصر الثالث: الشك في تحقيق العذاب الذي يعدهم به هود عليه السلام؛ ولهذا طلبوا تحقيقه إن كان هود عليه السلام صادقاً في تهديده إياهم بذلك؛ فاستعجلوا العذاب زعماً منهم أنه كاذب.[2]

العظة والعبرة:

١. لقد فشل قوم هود عليه السلام في التأثير على دعوة هود عليه السلام؛ حتى لا يستجيبوا له، فجاءهم هود عليه السلام بما لم يتوقعوه، وحكم الله تعالى عليهم بالهلاك العاجل غير الآجل، وهذه هي نهاية كل طاغية وظالم، فقد قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ إبراهيم: ١٣.
٢. أن أعداء الحق مهما حاولوا تزيين كلامهم فالحق أبلج، وصاحب الباطل مهزوم مهما تفلسف في كلامه وتلجلج فليس له من فشله مخرج.
٣. تحقيق الله النصرة لرسوله هود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف: ٧٢.

و من الاستهزاء بأنبياء الله تعالى وأتباعهم:

---

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الثاني، جـ٨، صـ١١٠. غرائب القرآن، للنسيابوري، المجلد الخامس، جـ٨، ٤١٤.

٢ المرجع السابق. المجلد الخامس، جـ٨، ٤١٤.

ما ذكره الله تعالى عن عاد إذ كذبوا المرسلين، فكان من أسلوب استهزائهم بعد قول هودٍ عليه السلام لهم: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء:١٣٥ــ١٣٨.

مجمل المعنى:

قال سيد قطب – رحمه الله تعالى – تعليقاً على هذه الآيات: فما يعنينا أن تعظ أو لا تكون أصلاً من الواعظين، وهو تعبير فيه استهانة، واستهتار، وجفوة يتبعه ما يشي بالجمود، والتحجر، والاعتماد على التقليد.[1]

و قال أبو السعود: والتعبير بالشق الثاني – أي قوله تعالى: ﴿ ...أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ – عن مقابله؛ للمبالغة في بيان قِلَّةِ اعْتِدَادِهِم بوعظه، كأنهم قالوا: أم لم تكن من أهل الوعظ ومُبَاشِرِيْهِ أصلاً.[2] وهذا هو العنصر الفعال في الاستهزاء.

دل قولهم: ﴿ ...سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ ﴾، على عدم المبالاة بدعوة هود عليه السلام، وأنهم لا يأخذون بها، ولا يسمعون لدعوته بلسان المقال، أو بلسان الحال؛ فوجود دعوته، وعدمها سواء.

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ ﴾، في معنى هذه الجملة خمسة احتمالات:

الأول: أن عادة الأولين يلفقون مثله، ويسطرونه.

الثاني: أن هذا الذي نحن عليه من الدين هو خلق الأولين، ونحن بهم مقتدون.

الثالث: أن هذا الذي نحن عليه من الموت والحياة عادة الأولين، وما هي إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها، وهذا على قراءة نافع، وابن عامر، وحمزة، وعاصم، وخلف بضم الخاء واللام.

---

١ في ظلال القرآن، سيد قط، المجلد الخامس، جـ١٧، صـ٢٦١٠، ط العاشرة، دار الشروق، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٢ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٥، صـ٥٤.

الرابع: وهو على قراءة ﴿ ...خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بفتح الخاء أي أخلاق الأولين كما قالوا أساطير الأولين، وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي، وأبي جعفر، ويعقوب.[1]

الخامس: على هذه القراءة ما خُلُقُنَا هذا إلا أخلاقهم، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث، ولا حساب.

٢. العنصر الثاني: قولهم:﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾أي لسنا معذبين على ما نحن عليه من الأعمال، وهاتان الشبهتان قد انطلتا على كثير من اتباع هود عليه السلام، وكانت الغاية التي أرادوها من التكذيب، أي أصروا على تكذيبهم مع من أضلوهم.

العظة والعبرة:

لقد كانت العظة في تعجيل العذاب بدون مهلة، ومباشرتهم بالعذاب بإهلاكهم، واستئصالهم عن بكرة أبيهم، فقد عاجلهم، ولم يمهلهم بعد التكذيب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ... ﴾الشعراء: ١٣٩، فجاء بحرف العطف الذي يدل على الترتيب والتعقيب مباشرة، وهو الفاء، كما قال ابن مالك في ألفيته:

والفاءُ للتَرْتِيْبِ بِاتِصَالِ * وَثُمَ لِلتَرْتِيْبِ بِانْفِصَالِ.**

و قد بين هذه العظة والعبرة بوضوح، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾الشعراء: ١٣٩ ــ ١٤٠.

النتيجة:

إن تكذيب قوم عادٍ لهودٍ عليه السلام الذي لم يجزموا بصدقه، حيث عبروا بـ(إن) التي تدل على الشك في شرطها، وطلب إتيانه بما وعدهم من العذاب يدل على ذلك؛ لأن استعجالهم للعذاب الذي يرون أنه لا يمكن حصوله من هود عليه السلام، وإنما هو بيد الله تعالى، وقد حاولوا تحسين شبههم بالإتيان بـ(كان)؛ للدلالة على أن عبادة الأصنام أمرٌ قديم، وعبروا بالمضارع؛ ليدل على أن ذلك متكرر من آبائهم، ومتجدد، وأنهم لا يتغيرون عنه.

و لرد هذا الاستهزاء عاجلهم هود عليه السلام بالرد بأن كلمة العذاب قد حلت، ووجبت، ولم يبق إلا

١ تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١٩، صـ١٧٨.

انتظار العذاب.[1]

حيث أنجى الله تعالى هوداً عليه السلام ومن معه بسبب الرحمة العظمى التي منحها لهم، وأما القوم الذين كذبوه فقد أستأصل الله سبحانه وتعالى شأفتهم فلم يبق لهم باقية، فقد أرسل عليهم ريح الدبور فأفناهم جميعاً، ولم يُبْقِ منه أحداً، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾الحاقة: ٦ – ٨. فعلى الدعاة أن يصبروا، ولا يفتروا عن الدعوة خوفاً من المرجفين والمشككين؛ فالعاقبة للمتقين، والله أعلم.[2]

❖ **نبي الله صالح عليه السلام:**

و من استهزاء الكافرين برسل الله تعالى:

قول قوم صالح عليه السلام مع التشكيك في دعوته: ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ هود: ٦٢.

مجمل المعنى:

هذا التعبير يدل على أنهم كانوا يرجون لصالح عليه السلام أن يكون سيداً قبل إبلاغهم أنه رسول الله إليهم، وقبل أن كان عليه السلام يعيب ألهتهم، وكانوا يريدون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله؛ انقطع رجاؤهم منه. فلما نهاهم عن عبادة الأصنام التي كان آباؤهم يعبدونها؛ صاروا في شك موقع في الريب (من أربته، فأنا أريبه، إذا فعلت فعلاً يوجب الريبة لديه). ومعناه التشكيك في دعوته، والاستهزاء به.[3]

قال ابن عاشور – رحمه الله: هذا جواب عن دعوته البليغة، الوجيزة الملأ إرشاداً وهدياً، وهو جواب مليء بالضلال والمكابرة، وضعف الحجة، كما أن قولهم: ﴿ ...قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ... ﴾، تعريض بخيبة رجائهم فيه، فهو تعنيف.[4] فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله،

---

١ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، صـ١١١.

٢ التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ٨، صـ١٦٦.

٣ الجامع لأحكام القرآن،للقرطبي، جـ٧، صـ٥٩.

٤ التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١١، صـ٢٨٩.

وبرروا أنهم يشكون في صدق رسالته إليهم، وزادوا ذلك تأكيداً بحرف التوكيد "إن"، ولام الابتداء، والجملة الاسمية؛ ليثبتوا شكهم بأبلغ عبارة البلاغة والبيان، وهو دليل على شدة العناد، والتصميم على الكفر. ولكن قد كان رد نبي الله صالح عليه السلام هادئاً يقيم عليهم الحجة، ويقضي على تشددهم بدون عنف، أو نتائج تشعرنا بالشدة؛ رجاء أن يعودوا للاستجابة لدعوته، فأبقى على شعرة الوصل بعدم الجواب بالعنف، والشدة عملاً بما روي عن علي رضي الله عنه:" أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما".[1]

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ... ﴾، أي قد كنا نحترمك؛ لأننا كنا نرجو رجوعك إلى عبادة آلهتنا، ولكن بعد إعلانك النهي عن عبادتها انقطع ذلك الرجاء، فلا نسمع لك.

٢. العنصر الثاني: قولهم: ﴿ ...أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ... ﴾، فأنت بهذا خرجت عن دين آبائنا، فلا نتبعك، والعجيب أن تنهانا عن شيء توارثناه أباً عن جد، وهو أمر في غاية العجب! ولم يعلموا أن العجب عبادتهم لغير الله تعالى![2]

٣. العنصر الثالث: قولهم: ﴿ ...وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾، وهذه الشبهة كافية أن تصدنا عن اتباعك، فكيف نترك عبادة آبائنا المتيقنة، ونتبعك على ما نشك فيه! وهذه الشبهة كافية أولاً حسب زعمهم.[3]

العظة والعبرة:

أن أهل الباطل مهما حاولوا استخدام الوسائل الإعلامية التي تهدف إلى جر قومهم إلى غير

---

١ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، جـ١، صـ٥٣، ط الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٥١هـ. قال: رواه أبو داوود، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة، والطبراني عن ابن عمر، وابن عمرو، والدارقطني، والبيهقي عن علي موقوفاً، والبخاري في الأدب المفرد، جـ١، صـ٥٣، ط الثانية، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٥١هـ.

٢ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الأول، جـ٤، صـ٩٧٠.

٣ التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١٩، صـ٢٨٣. [بتصرف].

ما يصبون إليه، فلا بد أن يفشلوا، وينالوا عقاب تضليلهم لأقوامهم عاجلاً أو آجلاً.

و من الاستهزاء بالرسل:

استهزاء قوم ثمود برسولهم صالح عليه السلام والذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾المؤمنون: ٣٣ – ٣٨.

مجمل المعنى:

قال أشراف قوم صالح عليه السلام وقادتهم ورؤساؤهم الذين كفروا، واستكبروا عن قبول الدعوة، وعز عليهم أن يطيعوا رجلاً منهم، وكذبوا بلقاء ما في الآخرة من بعث، وحساب، وثواب، وعقاب، ونَعَّمْنَاهُمْ في الحياة الدنيا بكثرة الأموال، والأولاد، والزُّرُوْعِ، والثمار، وبَوَّأْنَاهُمْ في الأرض من سهولها قصوراً، ويتخذون من الجبال بيوتاً –قال هؤلاء الأشراف لِعَوَامِّهِمْ وأتباعهم: ما هذا الذي يدعي أنه رسول من عند الله تعالى إلا إنسان مثلكم، يأكل مما تأكلون منه، ويشرب مما تشربون منه، فليس له ميزة عليكم؛ لأنه يحتاج إلى الطعام والشراب كأصغر رجل فيكم، ولئن أطعتم بشراً مثلكم فيما يأمركم به، ونبذتم عبادة الأصنام أنكم لترجعون بصفة المغبون إذا خضعتم لرجل ليس بأفضل منكم.

أيعدكم هذا الرجل أنكم إذا متم، وكنتم تراباً وعظاماً نخرة مجردة عن اللحم أنكم تخرجون من قبوركم، بعد أن تدب فيكم حياة جديدة أخرى، فتصيرون إلى الحياة كما كنتم تحيون في الدنيا؟ إنه لبعيد كل البعد أن تصدقوا ما يهددكم به من البعث، والحساب في الحياة الأخرى التي يزعمها. فلا حياة إلا حيتنا الدنيا، يموت بعضنا عند انقضاء أجله، ويحيى بعضنا حتى يستوفي أجله، وما نحن بمبعوثين بعد الموت كما يدعي. وما هو إلا رجل اختلق على الله تعالى كذباً أنه مرسل من عنده إلينا، وما نحن له بمصدقين.[1]

عناصر الشبهة:

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الرابع، جـ١٨، صـ١٨-١٩.

١. العنصر الأول: أن صالحاً عليه السلام ومن تبعه بشر مثلهم سواء بسواء، فطاعتهم خُسرانٌ عليكم، وتبعية غير مبرر لها.
٢. العنصر الثاني: التشكيك في قضية البعث بعد الموت وقد صرتم تراباً وعظاماً متعفنة بدون لحم ولا جلد يغلفها، فهذا أمرٌ بعيد بعداً شاسعاً أن تحيوا بعد الموت؛ فلا تصدقوه، وفيه تعجبٌ من الوعد.[١]
٣. العنصر الثالث: زعمهم أن صالحاً عليه السلام افترى على الله الكذب في دعوته؛ ولذلك نحن لا نؤمن له فعليكم أنتم أيضاً ألا تؤمنوا.
٤. العنصر الرابع: أنه لا حياة أخرى، ولا بعث إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا بعث للحساب بعد ذلك.

العظة والعبرة:

لقد صبر صالح عليه السلام ومن تبعه على هؤلاء الجاحدين، وتعاملوا معهم بنفسٍ بطيء؛ لثقتهم بنصر الله تعالى، فأهلكهم الله تعالى استجابةً لدعوة صالح عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ **المؤمنون: ٣٩**، أي بسبب تكذيبهم لي، فأخذتهم الصيحة، فتركتهم غثاء كغثاء السيل، قال الزمخشري: شبههم في دمارهم بالغثاء وهو حمل السيل، وبين أن سبب هذا ظلمهم، فقال تعالى: ﴿ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾**المؤمنون: ٤١**.[٢]

*** ملحوظة:**

سبب ما قرره الباحث من أن هذا الحوار من قصص صالح عليه السلام هو ذكر الصيحة في آخر القصة؛ لأن من أهلكوا بها هم قوم ثمود، لا قوم عاد الذين أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية، قال ابن عاشور: وهذا يرجح أو يُعَيِّنُ أن يكون هؤلاء القرن هم ثمود، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ **الحاقة: ٥**، وقال تعالى أيضاً في شأنهم: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾**الحجر: ٨٣**.[٣] ولكن بعضهم أفاد أنها من قصص هود عليه السلام، واستدلوا بقوله

---

١ التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١٨، صـ٤٤.
٢ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، جـ٣، صـ١٩٠.
٣ التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١٨،صـ٤٨.

تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾الأعراف: ٦٩، وبمجيء قصة عادٍ بعد قصة قوم نوحٍ في سورة الأعراف الآيات (٦٥-٧٢) وسورة هود الآيات (٥٠-٦٠). ولكن الأرجح ما ذكره الباحث؛ لأن الرأي الأول قطعي، يحمل دليله الذي لا شك فيه، أما الرأي الثاني فهو ظني.

و لكن الحافظ ابن كثير قال: وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم، كما سيأتي في قصة أصحاب الأيكة فإنه أجتمع عليهم أنواع من العقوبات ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمودٍ.[1]

و من استهزاء قوم صالح عليه السلام به:

قولهم لصالح عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾الشعراء: ١٥٣ ــ ١٥٤.

مجمل المعنى:

قالوا له يا صالح يظهر أن السحر قد غلب على عقلك، فسول لك أنك رسول من عند الله يُوْحَى إليه. وما أنت إلا إنسان مثلنا، وفيك كل الصفات التي فينا: تأكل، وتشرب، وتنام، وتصحو مثلنا، فَلِمَ كنت أنت نبياً من دوننا فإن كنت صادقاً فيما تزعم فهات لنا آية ومعجزة تدل على صحة دعواك في أنك نبي من عند الله.

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: قولهم لنبي الله صالح عليه السلام: ﴿ ...إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾، أي أنه من الذين سُحِرُوا كثيراً فتمكن السحر من تصرفاتهم، فتصرفه ليس تصرف عاقل؛ لأنه قد عمل فيه السحر كثيراً.[2] ومن كان كذلك فكيف نأخذ عنه الرسالة، ويصدق فيما يبلغه عن الله تعالى.

---

١ قصص الأنبياء، لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١هـ، ٧٧٤هـ)، جـ١، صـ١٥٤، ط الثانية، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٢ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم بن محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، جـ٣، صـ٣٣٣.

٢. العنصر الثاني: قولهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ... ﴾، والغرض من هذا هو حصر أحواله الخلقية، وموقعه منهم أنه ليس ملكاً مقرباً حتى يصلح لأن يكون رسولاً إليهم. وإنما هو بشر كسائر أفراد البشر، فهو قصر موصوف على صفة، وهو قصر حقيقي. أي أنت بشر لا تتعدى هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى، وفي مقدمتها الملائكة.[١] ولا يكاد بوجود هذا القصر؛ لعدم القدرة على الإحاطة بجميع صفات الشيء حتى يمكن إثبات شيء ونفي ما عداه بالكلية. قال السيوطي – في عقود الجمان –و هو يذكر أنواع القصر:

إما حقيقي، وإما غير ذا * فالقصر للموصوف، والوصف اللذا.**
أعم معنىً أول الحقيقي * كأنما محمد صديقي.**
أي ماله وصفٌ سواه يورد * وهو عزيز لا يكاد يوجد.**[٢]

العظة والعبرة:

فبعد الاستهزاء بنبي الله تعالى صالح عليه السلام، ثم أعقبه قتل الناقة على يد أشقاهم –قدار بن سالف– وهو أشقى الأولين، أصبحوا وقد تغيرت ألوانهم كما أخبر صالح عليه السلام، واستولى عليهم الندم والخوف من أن يحل بهم العذاب الذي ظهرت مقدماته عليهم، فأرسل الله تعالى عليهم صاعقة أخمدت أنفاسهم، واستأصلت شأفتهم، فماتوا عن آخرهم، وانطمروا بين التراب والحجارة. إن فيما وقع لثمود لعظة بالغة ينبغي أن تردع المشركين من قريش، ولكنهم على الكفر مصرون، وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لعزيز منتقم قهار، ولكنه رحيم يمهل الكافرين لعلهم يعتبرون.[٣]

النتيجة:

إن النتيجة التي آل إليها كل فريق هي ما تضمنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

---

١ المرجع السابق، جـ٣، صـ٣٣٣.

٢ عقود الجمان في علم المعاني مع شرحه، صـ٤٣ ، كلاهما للسيوطي، وهو أبو الفضل جلال الدين السيوطي الشافعي (٨٤٩هـ – ٩١١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، مصر، ١٣٨٥هـ، ١٩٣٩م.

٣ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الرابع، جـ١٩، صـ٧٨-٧٩.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ غافر: ٥١ ــ ٥٢.

فلقد كانت عقيمة بالنسبة لقوم صالح عليه السلام بعد أن بين لهم الآية التي أيده الله بها، ونهاهم عن أن يمسوها بسوء؛ فيأخذهم عذاب عظيم. ولقد تجرءوا على قتلها، فأمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام، فأخذتهم الصيحة؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يقيموا فيها، وحكم الله عليهم بالبعد عن رحمة الله تعالى. وكتب النجاة لصالح عليه السلام، ومن آمن معه.

❖ **نبي الله إبراهيم** عليه السلام:

ومن الاستهزاء بالأنبياء:

ما ذكره الله تبارك وتعالى عن قوم إبراهيم عليه السلام، وهم هنا أهل بابل الذين كانوا يعبدون الأصنام. بعد نصحه لهم بقوله: ﴿ ...لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ ﴾الأنبياء: ٥٤. فردوا عليه مستهزئين به بقولهم: ﴿ ...أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾الأنبياء: ٥٥.

مجمل المعنى:

يقول قوم إبراهيم عليه السلام له: أجئتنا بالحق، أي أجدٌ وحقٌ هذا الذي جئتنا به، أم لعبٌ وهزلٌ؟ قالوا هذا لما استبعدوا أن يأتيهم الضلال من طريق آبائهم، وظنوا أن إبراهيم عليه السلام يقول هذا على سبيل المزاح.[1]

قال أبو السعود – في تفسير الآية الكريمة: فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزح، وفي إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات، والدوام اللذين يرجحانه عندهم.[2]

يقول الباحث: وكلمة "**أَمۡ** " هذه هي أم المتصلة المغْنِيةِ مع الهمزة عن لفظ "أي" في طلب التعيين، أي تعيين أحد الأمرين لا الهمزة وحدها.[3]

وهذا يدل على بلادتهم، وتحيرهم في الذي جاء به نبي الله إبراهيم عليه السلام، وهو في الحقيقة يعكس القضية في الاستهزاء، وأنهم جديرون بالاستهزاء بهم؛ لتحيرهم فيما جاء به إبراهيم عليه السلام، وقد أصبحوا محتاجين إلى بيان ما جاء به نبي الله إبراهيم عليه السلام.

---

١ المرجع السابق، المجلد الرابع، جـ١٧، صـ٣١.

٢ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٤، صـ٣٤٤.

٣ شرح ابن عقيل على الألفية مع حاشية الخضري، جـ٢، صـ٦٢، ط الأخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ١٣٥٩هـ، ١٩٤٠م.

و قد قصدوا من وراء ذلك وضع شبهة وهو أنه هازل ولاعب من جملة اللاعبين الذين قد تركهم الناس لشهرتهم باللعب، فهو فرد من هذه الطائفة.

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: الشك في مجيئه بالحق، وهو أحد الأمرين المسُتَفْهَمِ عن وجوده في رسالة إبراهيم عليه السلام.
٢. العنصر الثاني: السؤال عن انغماسه في اللاعبين، وأن ما جاء به ليس إلا لهوٌ ولعبٌ. لأن المراد تعيين أحد الأمرين الذين لم نجزم بأحدهما، وهما: المجيء بالحق، أو اللعب. ومعنى هذه الشبهة أنك يا إبراهيم إما صاحب حق أو صاحب باطل؛ ولذلك نحن لا يتحتم علينا اتباعك.

العظة والعبرة:

إن الله تعالى أيد إبراهيم عليه السلام على قومه الذين رأوه مجرد هازل ولا عب في دعوته بترك عبادة الأصنام من دون الله تبارك وتعالى حتى أراهم أنه صاحب جد، وعزم، وقوة وذلك بتكسير هذه الأصنام حتى جعلها قطعاً مفتتةً في الأرض، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ الأنبياء: ٥٨.

فعرفوا أنه ليس لاعباً، ولا هازلاً، وإنما هو صاحب جدٍ يحمل رسالة صدق وحق من عند الله تعالى، ولا بد له من تنفيذها على رغم أنوفهم، شاءوا ذلك أم أبوا.

فكان ما فعله عظةً وعبرةً لهم ولأمثالهم أن صاحب الحق ليس في قاموسه الهزل، وأن عليهم طاعته وتصديقه فيما قال.

النتيجة:

هي أن الله تعالى رد كيد هم في نحورهم، حيث تآمروا على إحراق إبراهيم عليه السلام في النار لنصر آلهتهم بزعمهم –كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الأنبياء: ٦٨، فأمر الله تعالى النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وسلبها حرارتها، وشدة زمهريرها، قال تعالى:﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ الأنبياء:٦٩، فرد الله تعالى كيدهم عليهم، وجعلهم الأخسرين، ونجاه الله تعالى من كيدهم، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا

لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾الأنبياء: ٧٠ – ٧١.

و هكذا كانت نتيجة استهزائهم بإبراهيم عليه السلام، والتشكيك بأنه من اللاعبين. فأظهرت بأنه ليس من اللاعبين، وإنما أمره جداً أيما جد، ﴿... وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾يوسف: ٢١. وهذا أيضاً تحقيقٌ لوعد الله تعالى لرسله، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾غافر: ٥١ – ٥٢.

و النجاة من النار هي النجاة الأولى، أما النجاة الثانية فهي نجاته من الحُلول بين ظهراني المشركين من أرض الكلدان إلى أرض فلسطين، وهي بلاد كنعان. وهجرة إبراهيم عليه السلام هذه هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين.[1]

❖ **نبي الله لوط** عليه السلام:

و من الاستهزاء بالرسل:

قول قوم لوط عليه السلام – فيما أخبر الله عنه بقوله تعالى:﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾العنكبوت: ٢٩.

مجمل المعنى:

قال أبو السعود: أي فما كان جواباً من جهتهم شيء من الأشياء إلا هذه الكلمة الشنيعة، أي لم يصدر عنهم في هذه المرّةِ من مَرَّاتِ مواعظ لوط عليه السلام.[2]

وهذا النص يدل على صلافة القوم، وانقطاع الحجة؛ حيث استعجلوا العذاب، إن كان لوط عليه السلام صادقاً في الوعيد بالعذاب.

غير أن عبارتهم تدل على عدم جزمهم بالتكذيب للوطٍ عليه السلام حيث عبروا بأداة الشرط "إن" والتي تدل على الشك في وقوع شرطها.

---

١ تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١٧، صـ٩٧. وتفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٤، صـ٣٤٨.

٢ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٥، صـ١٥١.

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: تكذيبهم بوقوع العذاب.

٢. العنصر الثاني: أنه لو كان صادقاً لعاجلهم بالعذاب.

العظة والعبرة:

هي استجابة الله دعوة نبيه لوط عليه السلام، ومعاجلتهم بالعقوبة، وهي تنفيذٌ لقوله تعالى موحياً إلى الرسل: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾إبراهيم: ١٣.

النتيجة:

هي إهلاك الشذوذيين من قوم لوط عليه السلام برفع جبريل عليه السلام قراهم إلى السماء، ثم طرحها على الأرض، وقد جعل عاليها سافلها، واتبعهم بالخسف وبحجارة من سجيل منضود.[١]

❖ **نبي الله شعيب** عليه السلام:

و من الاستهزاء بالرسل:

قول قوم شعيب عليه السلام: ﴿ ...أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾هود: ٨٧.

مجمل المعنى:

و لقد بلغ قوم شعيب عليه السلام أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلاً، وأنه من أحكام الوسوسة والجنون، وعلى ذلك بنو استفهامهم، وقالوا –بطريقة الاستهزاء: أصلاتك التي هي من نتائج الوسوسة، وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التي توارثناها أباً عن جد.

فغيروا حقيقة ما تأمر به الصلاة أو تنهى عنه؛ لأن وظيفة الصلاة هي ما ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ...وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ... ﴾ العنكبوت: ٤٥. وإنما خصصوا الصلاة بإسناد الأمر إليها من بين سائر الأحكام النبوية؛ لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة، معروفاً بذلك، وكانوا إذا رأوه يصلي يتغامزون ويضحكون، فكانت من

---

١ فتح القدير، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد الشوكاني)، جـ٤، صـ١١٤، ط الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٤م.

بين سائر الشعائر ضحكة لهم.

و في ضمن هذا يريدون صد شعيب عليه السلام عن الصلاة؛ حتى لا يُعيِروه بها. وهذا دأب المجرمين الذين يصدون الناس عن التمسك بالحق كما حكى الله تعالى ذلك عن المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين، كما قال تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾ التوبة: ٧٩. فجعلوا المدح ذماً، وهذه عادة الطغاة في قلب الحقائق؛ لأنهم يريدون تشويه سمعة الأنبياء واتباعهم.

و أضافوا إلى ذلك افتراءً وهو أن صلاته تأمره بترك التصرف بأموالهم كيفما شاءوا، أي تأمرنا بتقيدي حريتنا في أموالنا، وهذا أيضاً يصب في الاستهزاء بشعيب عليه السلام.

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: هي إسناد الأمر بترك عبادة الأوثان إلى صلاة شعيب عليه السلام.
٢. العنصر الثاني: قولهم استهزاءً بشعيب عليه السلام ووصفه بهذين الوصفين بأن صلاته تأمره بترك عبادة الأصنام، كما تفيد تصرفهم في أموالهم على طريق التهكم، وإنما أردوا بذلك وصفه بضديهما، كقوله تعالى على لسان خزنة جهنم: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩ ﴾ الدخان: ٤٩.

وهو من المحسنات البديعية، كما ذكره السيوطي –رحمه الله– في عقود الجمان بقوله:

قُلْتُ ومِنْهُ يَقْرُبُ التَهَكُّمُ * والهَجْوُ فِي مَعْرِضِ مَدْحٍ نَظَمُوْا.**[1]

العظة والعبرة:

ذكرها الله تعالى في نهاية حوار شعيب عليه السلام مع قومه بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥ ﴾ هود: ٩٤ــ ٩٥.

---

١ أنظر عقود الجمان مع شرحه كليهما للسيوطي، صـ١٣٠.

*** فائدة:**

في هذه الآية سؤال واستشكال:

أما السؤال فهو أن المقام في قوله تعالى: ﴿ ... وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ... ﴾، مقام إضمار، فكان حقه "و أخذتهم الصيحة" وهو من باب الخروج عن مقتضى الظاهر، والسر البلاغي هو قصد تسجيل سبب الصيحة التي أخذتهم، وهو الظلم، ولو أضمر لما أمكن تسجيل وصف الظلم عليهم. والله أعلم!

وأما الاستشكال فهو أن الله تعالى أخبر في هذه الآية أن التي أخذت قوم شعيب عليه السلام هي الصيحة، أيَّ صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا. وفي سورة الأعراف قال تعالى:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ... ﴾ الأعراف: ٩١. وكذلك في سورة العنكبوت، قال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ... ﴾العنكبوت: ٣٧. والمراد بالرجفة الزلزلة – قال أبو السعود- ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى إليها، وكذلك قال الألوسي.[1] وبهذا يزول الاستشكال؛ لأن كلام الله تعالى لا يختلف، وكلام غيره قد يختلف كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾النساء: ٨٢. وقوله تعالى:﴿ ... فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾هود: ٦٧ ، أيَّ ميتين لازمين لأماكنهم. وقوله تعالى: ﴿ ... أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾هود: ٩٥ ، أيَّ فقد هلكوا وكأنهم لم يقيموا فيها متصرفين في أطرافها. وهذه الآيات الثلاث بيان العظة والعبرة في نهاية الطغاة والمجرمين كما هي سنة الله فيهم.[2]

النتيجة:

إن النتيجة كانت واضحة وجلية لكل ذي لبٍ، فقد أهلكهم الله تعالى ودمرهم حتى كأنهم ليسوا موجودين في الأرض، ولم يقيموا بها أصلاً، وكتب الله تعالى النجاة لشعيب عليه السلام ومن آمن

---

١ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٣، صـ٣٤٧. وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمؤلفه السيد محمود الألوسي البغدادي، جـ١، صـ٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ١، صـ٣٤٧.

بـه برحمتـه، قـال تعـالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ هود: ٩٤ ــ ٩٥.[1]

❖ **رسول الله محمد ﷺ:**

و من الاستهزاء بالرسل:

الاستهزاء بخير البشر محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ **لأنبياء:٢ ــ ٥.**

مجمل المعنى:

هؤلاء الكفار ما يأتيهم من وعظ وإرشاد من ربهم في القرآن، نكرره ونعيده على أسماعهم؛ كي يتعظوا به، وينتهوا من سِنَةِ الغفلة والجهالة، إلا استمعوه وهم يستهزؤون ويسخرون منه. لاهية قلوبهم عن التفكير فيه، معرضة عن تدبر مراميه. وتشاور الظالمون المشركون، وبالغوا في إخفاء حديثهم فيما بينهم، وتشاوروا في أمر الرسول ﷺ، والوسائل التي يعاملون بها دعوته. ويقولون ما محمد الذي يدعوكم إلى ترك عبادة الأصنام إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء: يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق كما نفعل فإن أتي من الخوارق ما يخالف مألوفكم، فليس إلا من قبيل السحر، وقصدوا بالسحر القرآن الكريم الذي تحداهم به الرسول ﷺ، فبهرهم، وأعجزهم عن مجاراته وهم أرباب الفصاحة والبلاغة- أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق.

و إنما أخفوا أحاديثهم فيما بينهم؛ ليهيئوا وسائل الشر والفساد في صد دعوة الرسول ﷺ، وقد أخبر الله تعالى عن رسول الله ﷺ أنه أوحى إليه أحوال الكفار وأقوالهم، فقال الرسول لهم: ربي يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم من أقوالكم، ويستوي عنده سركم وجهركم، وهو مطلع على كل

---

١ المرجع السابق، جـ٣، صـ٣٤٧. تفسير النسفي، للإمام الجليل عبد الله بن أحمد بن محمد محمود النسفي، جـ٣، صـ٢٠٣، دار الكتاب العربي، بيروت، للبنان، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

ما يحدث في السماء والأرض، وهو السميع العليم، فلا يخفى عليه شيء مما تسرون ومما تضمرون.

لم يكتفوا بادعائهم أن القرآن سحر –وهي الفرية الأولى– بل قالوا: إنما هو أخلاط أحلام أباطيل لفقها، وتخيلها ولا حقيقة لها وهي الفرية الثانية. فلما رأوا أن ما زعموه يبعد تصديقه، وأنه من المستحيل أن يكون القرآن في فصاحته وبلاغته أحلام نائم، انتقلوا إلى فرية ثالثة، فقالوا: لقد اخْتَلَقَهُ، وتَقَوَلهُ محمد، فليس القرآن إلا مفتريات ادعى أنها من عند الله.

ثم انتقلوا إلى فرية رابعة، فقالوا: إنه كلام شِعْرِي له فصاحة الشعراء، ولكنه يُخَيَّلُ إلى السامع معاني لا حقيقة لها. وهذا الاضطراب والتردد يدل على ضعف حجج هؤلاء الكافرين المعاندين، ثم أسرفوا في عنادهم، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه كالمعجزات التي أرسل بها الأولون من الرسل مثل: اليد والعصا لموسى عليه السلام، والناقة لصالح عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام.

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: قوله تعالى: ﴿ ...إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾. أي يهزؤون به ويسخرون.
٢. العنصر الثاني: قوله تعالى:﴿ ...هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... ﴾. فهو استهزاء بالنبي ﷺ، وأنه رجل مثلهم لا ميزة له عليهم؛ يريدون بذلك طمس معالم الرسالة.
٣. العنصر الثالث: قوله تعالى: ﴿ ...أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾. يريدون الاستهزاء بالقرآن الكريم، أنه سحر وليس كلام الله عز وجل.
٤. العنصر الرابع: قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ... ﴾. هذه ثلاثة أشياء يريدون بها الاستهزاء أيضاً بالقرآن الكريم، وأخيراً بالنبي محمد ﷺ وبأنه شاعر. وكلها باطلة لا تزعزع شيئاً من أسس الحق.

العظة والعبرة:

هي تهديدهم بما أجراه الله تعالى على الأمم السابقة من العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢ ﴾ الرعد: ٣٢.

و من الاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسله –عليهم الصلاة والسلام– أيضاً:

ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم عن استهزاء الكفار بسيد الخلق محمد ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ **الفرقان: ٤ــ٩**

مجمل المعنى:

قال كفار مكة: ما القرآن إلا كذب اختلقه محمد، وزعم أنه أنزل عليه من عند الله، وأعانه عليه قوم آخرون من أهل الكتاب كانوا يلقون إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبر عنها بأسلوبه الخاص، ويزيد عليها ما يشاء.

هؤلاء الكفار قد حملهم كفرهم على أن يظلموا الرسول ﷺ بما تَقَوَّلُوْه عليه، ويفتروا عليه الزور والبهتان بجعل كلام الله تعالى المعجز مُخْتلقاً ملفقاً من بعض من أسلم من أهل الكتاب، وقالوا: ما القرآن إلا قصص المتقدمين وأكاذيبهم، وقد استنسخها محمد من هؤلاء الذين تلقاها منهم، فأمر بكتابتها؛ لأنه أمي، فهي تُمْلَى عليه في الغدوة والعشي، ثم يصوغها كما يشاء، ويتلوها علينا.

قل لهم أيها الرسول: لقد أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء في السموات والأرض فهذا القرآن مشتملٌ على غيوب مستقبلية، وخفية، وأشياء ملفوفة لا يعلمها إلا علام الغيوب.

فقال هؤلاء الكفار –على سبيل التهكم والاستهانة: ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش، وابتغاء الرزق كما نمشي! فإن كان رسولاً كما يزعم فما باله لم يخالف حاله حالنا، ولماذا لا يترفع عن مستوانا كما يفعل الأكاسرة والقياصرة، أو يكون أنزل إليه مَلَكٌ فيكون معه منذراً، ويُخَوِّفُ من يُخَالِفُهُ، ورادعاً له يردع عنه مغبة عداوتنا؛ فنعلم أنه صادق بتصديق المَلَكِ إياه. أو هلا يُلْقَى إليه كنزٌ من السماء يستظهر به، ويستغني به عن تحصيل المعاش. أو هلا يكون له بستان يأكل من فاكهته، ويتعيش من رِيْعِهِ؛ فيكفيه مُؤْنَةَ السعي وراء

رزقه. وقال كفار قريش للمؤمنين-وبخاصة عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه: إنكم ما تتبعون إلا رجلاً قد سحر؛ فَجَنَّ، فخف عقله فَهَذَا.

انظر يا محمد كيف قالوا فيك هذه الأقاويل العجيبة الجارية في غرابتها مجرى الأمثال باحتياجك إلى ملك يؤيد رسالتك، وإلى مال يأتيك من السماء، تنفقه على نفسك واهلك، وزعموا أنك خفيف العقل؛ من سحر وقع لك، فضلوا بذلك عن الطريق الموصل إلى الهدى، وخبطوا خبط عشواء فهم لا يستطيعون سبيلاً إلى النيل منك، والقدح في نبوتك، فسر في طريقك، وأنا مؤيدك، وناصرك، وسيعلم الذي ظلموا أي منقلب ينقلبون.[1]

عناصر الشبهة:

١. العنصر الأول: زعمهم أن القرآن الكريم ما هو إلا كذب اختلقه النبي ﷺ، وأعانه عليه قوم آخرون.
٢. العنصر الثاني: أن القرآن الكريم أكاذيب الأقدمين استنسخها فهي تُقرأ عليه صبحاً وعَشِيًّا.
٣. العنصر الثالث: تنقيص النبي ﷺ بأنه يأكل الطعام، وهذا لا يتناسب مع نبوته؛ لأنه بهذا مثلهم.
٤. العنصر الرابع: أنه لو كان نبياً لأُنْزِلَ معه مَلَكٌ يعلن صدقه، وينذرنا سوء تكذيبنا إن كَذَبْنَاهُ، أو يكون له كنز يُغْنِيْهِ، أو بستان يأكل منه.
٥. العنصر الخامس: أنه رجل قد سُحِرَ، وأثر عليه السحر فكيف يؤمن عليه حمل الوَحْيَ إليهم بدون تحريف؟

وإذا تأملنا كل عنصر من هذه العناصر وجدناه كفيلاً بصد الناس عن دعوة رسول الله ﷺ؛ لكنها شبه باطلة لا تقف أمام النقد البصير.

العظة والعبرة:

لقد ذكرها الله تعالى موجزةً قاطعةً لكل الشبه والسخرية التي حاولوا بها النيل من عظمةِ سيدِ الخلق ﷺ، وأنهم قد باءت محاولتهم بالفشل، ولم يستطيعوا النيل منه، ولا القدح في نبوته، وما عليه إلا أن يسير في طريق هدايته ﷺ، قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾الفرقان: ٩.

---

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد٤، جـ١٨، صـ١٢٣-١٢٥.

و من الاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسله:

الاستهزاء –أيضاً– بخير خلق الله تعالى محمد ﷺ، قال تعالى:﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ص: ٤ – ٨.

مجمل المعنى:

استعجب كفار قريش من أن الله تعالى أرسل لهم نبياً عربياً قرشياً منهم، يُحذرهم، وينذرهم، فهو ليس من دَهَاقِيَّنِ الفرس، وليس من أشراف الروم، وليس من صناديد قريش، وليس مَلَكاً من الملائكة، وليس جنياً من الجن فكان مثار عجبهم حسداً وحقداً يأكل قلوبهم، ويحرق صدورهم، فلم يكادوا يرون ما يجري على يديه من معجزات حتى وصفوه بأنه ساحر، ونعتوه بأنه كذاب يفترى على الله تعالى.

و أنكروا عليه أنه يدعو إلى توحيد الله تعالى، وأنه يُنْكِرُ تَعَدُدَ الآلهة، وعجبوا من ذلك أشد العجب؛ لأنه يدعوهم إلى شيء لم يعرفوه عن آبائهم، وخرج أشراف قريش من دار أبي طالب غِضَاباً مسرعين، يقول بعضهم لبعض: اثبتوا على دينكم، وتمسكوا به فإنه لا يُرَادُ بكم الآن أن تتزحزحوا عن هذا الدين، وتتبعوا محمداً، ونحن ما سمعنا من أصحاب آخر ملة –أي النصارى– أن الإله واحد، ولكنهم يقولون: الأب، والابن، وروح القُدُسِ، وما سمعنا من آبائنا أن الإله واحد، فنحن ندين بدينهم، ونُقِيْمُ عليه، والذي جاء به محمد من دعوة الرسالة، والمُنَادَةِ بالتوحيد ليس إلا كذباً، وافتراءً يَخْتَلِقُهُ محمد، وينشره في الناس.

يستمر هؤلاء الكفار في إنكارهم، ويقولون: لم يُنَزَّلُ القرآن على محمد، ويُخْتَصُ بالرسالة من دون الناس؟ إنه ليس أعلى منا قدراً، ولا أعظم منا جاهاً، ولا أكثر مالاً، ولا أعز نفراً. وهؤلاء الكفار في شكٍ من نُزُلِ القرآن على محمد، واختصاصه دونهم بالوحي والرسالة، فهم سيظلون سَادِرِيْنَ في عنادهم حتى إذا نزل العذاب بهم، وصحوا من غفلتهم، تنبهوا وعلموا أن محمداً

صادق، وأن قرآنه من عند الله تعالى.[1]

عناصر الشبهة:

من أبرز عناصر الاستهزاء بالنبي ﷺ في الآيات السابقة –و الله أعلم – هي:

١. العنصر الأول: أنه ساحر كذاب؛ ولذلك تعجبوا منه.
٢. العنصر الثاني: وهو شُبْهَةُ زعم محمد توحيد الآلهة، وهذا مما يُتَعَجَبُ منه؛ لأنه يخالف ما كان عليه آباؤهم من قبل.
٣. العنصر الثالث: عدم سماعهم بما يدعو إليه محمد من التوحيد في آبائهم ولا في مِلَّةِ النصارى الذين يعتقدون بالتثليث.
٤. العنصر الرابع: الإنكار، والاستغراب أن يُنَزَلَ القرآن على محمد من بين كفار قريش؛ وبناءً عليه فهو كذاب.

العظة والعبرة:

أنهم بعد هذا الإمهال، والإملاء لهم لن يُفْلِتُوا من عذاب الله تعالى، بل العذاب الأليم ينتظرهم، وسيذوقون ألم هذا العذاب، ويذوقون، ويتجرعون مرارته.

النتيجة:

إن النتيجة التي حلت بالمستهزئين بالنبي ﷺ هي تلك النتيجة التي ذكرها الله تعالى في آخر سورة الحجر، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾الحجر: ٩٤ – ٩٦. فقد أمر الله تعالى نبيه محمد ﷺ بالصَدْعِ بالحق (أي الجهر به وإمضائه، والإعراض عن المشركين) وهذا كان قبل الأمر بالجهاد، ثم نُسِخَ بشرعية الجهاد، وبعد أمر الله تعالى له بالجهر أعطاه الأمان والمناعة من استهزاء المستهزئين، فكفاه الله تعالى إياهم، وهم جماعة من قومه ﷺ كانوا يستهزؤون، ويسخرون منه، ويبالغون في إيذائه، فأخبر الله تعالى أنه قد كفاه كيدهم وأذيتهم، وكان عددهم خمسة من رؤساء أهل مكة وهم: الوليد بن المغيرة –وهو رئيسهم– والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زَمْعَةَ، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة أهلكهم الله تعالى جميعاً قبل يوم بدر في يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله ﷺ، وسبب إهلاكهم –كما ذكره ابن

١ المرجع السابق، ص٨٨-٩٠.

إسحاق- أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام، وقام رسول الله ﷺ، فمر الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء وجعت عينه، فجعل يضرب رأسه في الجدار. ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه؛ فاستقاء، فمات منه -أي عظم بطنه بالماء الأصفر. ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله -وكان قد أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر سبله، وهو أنه مر برجل من خزاعة يُرَيِّشُ نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش- وليس بشيء، وانتقض به فقتله. ومر العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به على شبرقة، فدخلت في أخمص قدميه شوكة، فعلقت. ومر به الحارث بن طلاطلة فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحاً؛ فقتله. وقد ذكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا، وقيل: إنهم المرادُ بقوله تعالى: ﴿...فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ...﴾ النحل: ٢٦. شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم.

و قد رَوَى هذه القصة محمد بن إسحاق، قال: كان عظماء المستهزئين -كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير- خمسة نفر، وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم، ثم ساقهم. ويزيد بن رومان ثقة، وكذلك عروة بن الزبير ثقة، وهو مشهور -كما ذكره ابن حجر في التدريب- وبناءً عليه فالحديث صحيح.[1]

و نقله السيوطي عن الإمام عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبي نُعَيَّم عن قتادة، ومقسم مولى ابن عباس ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الحجر: ٩٥، قال: هم الوليد بن المغيرة وعددهم خمسة نفر بنحو رواية محمد ابن إسحاق السابقة، وقال: ابن حجر في قتادة ثقة، وقال في مقسم: صدوق فهما محتج بهما. والله أعلم.[2]

ونكتفي بهذه النصوص الثلاثة من نماذج الاستهزاء؛ لطولها، واحتوائها على عناصر كثيرة من

---

١ تفسير القرآن العظيم، الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، جـ٢، صـ٥٥٩-٥٦٠، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

٢ ، الدر المنثور في التفسير المأثور، الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، جـ٥، صـ١٠٤، ط الأولى، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م. وانظر تقريب التهذيب، للحافظ أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣هـ٨٥٢هـ)، جـ١ (حرف القاف)، وجـ٢ (حرف الميم والياء)، ط الثانية، دار المعارف، بيروت، لبنان، ١٣٥هـ، ١٩٧٥م.

عناصر الاستهزاء بالنبي ﷺ، نزهه الله تعالى، وحماه مما يقولون فهو الموصوف بالكمال البشري، كما قاله حسان بن ثابت ﷺ في قصيدته، من بحر الوافر:

خُلِقْتَ مُبَرَأً مِنْ كُلِ عَيَّبٍ *** كَأَنَكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ.

- **الموضوع الثاني من البحث:**

التهديد بالقتل، أو السجن، أو الطرد، ونصر الله تعالى لهم.

سبق وأن تحدثنا عن استهزاء الكفار بأنبيائهم –عليهم السلام– وأما الآن فنشرع في الكلام عن التهديد الإخراج، أو القتل، أو السجن، مستعينين بالله تعالى.

❖ **نبي الله نوح** عليه السلام:

تآمر قوم نوح عليه السلام وقاموا بتهديده بالرجم، والطرد عن البلاد كما هو دأب الطغاة قديماً وحديثاً، حيث قال قوم نوح عليه السلام له مهددين له بالرجم: ﴿...لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ الشعراء: ١١٦.

مجمل المعنى:

ففي هذا النص حكاية تهديد قوم نوح عليه السلام تهديداً مؤكداً بالقسم أنه إذا لم ينته عن دعوته فإنهم سيجعلونه ضمن من يرجم؛ حتى يستريحوا منه. وهذا التهديد يشي بضيق صدورهم، وعدم تحملهم استمرار نوح عليه السلام في دعوته؛ لأن الرجم يقصد منه القضاء على المرجوم، وإعدامه من الحياة.

و لما أن واجههم نوح عليه السلام بحجته الواضحة، وعجزوا عن المضي في الجدل بالحجة والبرهان، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان. لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، فقالوا: ﴿...لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ الشعراء: ١١٦.[1]

عنصر التهديد:

عنصر التهديد يكمن في الشرط والجزاء. فالشرط فيه القسم عليه بترك دعوته لهم إلى التوحيد. والجزاء يشمل عقاب نوح عليه السلام بالرجم بالأحجار المدمرة إذا لم ينفذ الشرط.

و الجواب هنا هو جواب القسم، أما جواب الشرط فهو محذوف كما هو مقرر في القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله:

و احْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وقَسَمْ * جَوَابَ مَا اخْتَرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ.**

---

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الثاني، جـ٥، صـ٢٦٠٨. [بتصرف]

و المؤخر هنا هو الشرط فقد حذف جزاؤه، تقديره (نرجمك).

العظة والعبرة:

إن العظة والعبرة من تهديد من لم يؤمن بنوح عليه السلام هي أن الله تعالى قد رد كيدهم عليهم فأهلكهم عن بكرة أبيهم، وأغرقهم بالطوفان.

و قد جعل الله تعالى النجاة من هذا الغرق لنوح عليه السلام ومن آمن معه، كما ذكر ذلك الله تعالى في قوله استجابة لدعوة نوح عليه السلام حيث دعا ربه–قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ **الشعراء:١١٧– ١٢١.**

النتيجة:

لقد كانت النتيجة حاسمة كما طلبها سيدنا نوح عليه السلام –قال تعالى:﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ نوح: ٢٦ – ٢٧.

فقد استجاب الله تعالى دعاءه فلم يترك على الأرض صاحب دار يسكنها؛ وذلك لإعلام الله تعالى نوحاً عليه السلام أنه بعد طول زمن دعوته –تسعمائة وخمسين سنة– لم يستجب له إلا قليل فأغرقهم جميعاً عن بكرة أبيهم. وهي مهمة الطوفان، فلما انتهت أمر الله تعالى السماء أن تقلع بأمطارها، والأرض أن تبتلع ماءها، وغاظ الماء، ورست السفينة على الجودي في الموصل.[1]

إذاً فالنتيجة هي نتيجة طغيان الطغاة في الأرض على مرور الزمان والمكان، وتجدد الطواغيت، وهي إهلاكهم وتدميرهم جميعاً.

❖ **نبي الله صالح عليه السلام:**

لقد تآمر قوم صالح عليه السلام على قتله، وهو ما ذكره الله تعالى بقوله:﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

---

١ قال القرطبي: جبل بقرب الموصل استوت عليه في العاشر من المحرم –يوم عاشوراء. انظر الجامع لأحكام القرآن،للقرطبي، جـ٩، صـ٤١.

لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ **النمل:٤٨ــ٤٩**

مجمل المعنى:

وتدل الآيتان على أنهم تآمروا، وتعاهدوا على قتل صالح عليه السلام وأهله في الليل، وأنهم سينكرون ذلك، وأنهم لم يحضروا قتلهم فضلاً عن قتلهم، وهذا إخبار عن غاية الفساد الذي أخبر الله تعالى عنه بأنه فساد محض لا يخالطه إصلاح، فكل إناء بما فيه ينضح.والله أعلم![1]

عناصر التهديد:

١. العنصر الأول: المؤامرة على صالح عليه السلام وأهله؛ بقتلهم واستئصالهم؛ للاستراحة منهم.
٢. العنصر الثاني: السرية المحكمة في هذه المؤامرة القبيحة.
٣. العنصر الثالث: توكيدها باليمن المغلظة بالحلف بالله العظيم.
٤. العنصر الرابع: السرية في القتل لنبي الله صالح عليه السلام وأهله، وجعل قتلهم ليلاً.
٥. العنصر الخامس: إنكار هذه الجريمة، بل وإنكار شهودها.
٦. العنصر السادس: المبالغة في إثبات براءتهم من قتلهم؛ بإدعاء صدقهم في هذا القول، وهذا يدل على إحكام هذه المؤامرة الخبيثة، ومع هذا كله فلم ينجحوا بل رد الله مكرهم عليهم فلم يعودوا إلا بالهلاك، واستئصالهم من الأرض بدلاً من عزيمتهم على استئصال صالح عليه السلام وأهله.

العظة والعبرة:

هي تطبيق للقانون الرباني في قوله تعالى: ﴿ ...وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ... ﴾ فاطر: ٤٣. وهي ما صرح تعالى به هنا بقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ النمل: ٥٠.

أي فقد جازيناهم على مكرهم من حيث لم يحتسبوا.[2] وأين مكر من مكر، وتدبير من

---

١ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٥، صـ٩٠.
٢ المرجع السابق، جـ٥، صـ٩٠.

تدبير، وقوة من قوة، وكم يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة وحيلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله، وتباغتهم من حيث لا يشعرون.[1]

فعلى الطغاة، والجبابرة، وأعداء الإسلام أن يقشعوا سحائب الغفلة وظلمات شهوات الملك والاستعلاء عن الحق، وأن يعتبروا بمن سبقهم من مثل هؤلاء الطغاة، ولا يغتروا بالإمهال؛ فإن عاقبته الهلاك والنكال كما جاء في الحديث "إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته".[2]

النتيجة:

لقد كانت النتيجة مرة وعصيبة على أعداء صالح عليه السلام كما هي سنة الله تعالى في مصارع الطغاة، والجبابرة، وأعداء الإسلام والدعوة إلى الله تعالى؛ بإهلاكهم وتطهير الأرض من أرجاسهم، على أيدي الدعاة إلى الله تعالى، وإنقاذهم البشرية من طغيان الطغاة، فسبحان قاهر الجبابرة ومنكس أعلام القياصرة!

و بالمقابل كتابة الله عز وجل النجاة لصالح عليه السلام ومن آمن معه، وقد أمر الله تعالى بالنظر إلى هذه العاقبة الوخيمة؛ لأخذ العظة والعبرة منها لكل من تسول له نفسه أن يفعل فعلهم، قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣ ﴾النمل: ٥١ ــ ٥٣.

❖ **نبي الله إبراهيم عليه السلام:**

و من التهديد للأنبياء والدعاة:

تهديد والد إبراهيم عليه السلام بالرجم لولده، قال تعالى:﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ ﴾مريم: ٤٦.

مجمل المعنى:

---

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الثاني، جـ٥، صـ٢٦٤٦.

٢ متفق عليه، ورواه الترمذي، وأبو داود عن أبي موسى، أنظر فيض القدير شرح الجامع الصغير، لمحمد المدعو عبد الرؤف المناوي، جـ٢ ، صـ٢٦٤.

قال آزر لابنه إبراهيم عليه السلام: يا عجباً لك كل العجب! أمنكر عليٌّ عبادتي! أمنصرف أنت عن أصنامي! أمعرض عن آلهتي؟!

أُقسم لئن لم ترجع عن الزراية بها، والحط من شأنها، ولم تكف عن طلبك تركي لعبادتها، لأقذفنك بالحجارة، وأرجمنك بها رجماً. هذا فراق بيني وبينك ، فاحذرني، واخرج واتركني زمناً طويلاً لا تراني ولا أراك.[1]

عناصر التهديد:

١. العنصر الأول: الإنكار الشديد على إبراهيم عليه السلام؛ لرغبته عن عبادة آلهة آزر – والده.
٢. العنصر الثاني: الإنكار المؤكد بإبراز الضمير المنفصل (أنت) الذي يدل على القصر، وهو دليل على إنفراد إبراهيم عليه السلام بالرغبة عن آلهته دون غيره.
٣. العنصر الثالث: تضمن هذا الاستفهام الإنكاري بقوله: ﴿ ...أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ... ﴾، التهديد بقوله في القسم على ترك الانتهاء الذي يحمل التهديد إن لم يترك إنكاره عليه عبادة الأصنام.
٤. العنصر الرابع: هو الرجم بالحجارة؛ جزاء لعدم تركه ذلك حيث قال: ﴿ ...لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ... ﴾.
٥. العنصر الخامس: طلب هجر إبراهيم عليه السلام له والإنعزال عنه؛ حتى لا يراه، ولا يسمع نصحه؛ لأن كلا الأمرين يؤذيه. وفي هذا غاية المفاصلة لإبراهيم عليه السلام، وتحديد الموقف الحاسم من إبراهيم عليه السلام فهو تهديد بليغ مؤكد غاية التوكيد؛ حتى يقنع إبراهيم عليه السلام من العودة إليه في دعوته إلى توحيد الله تعالى، وترك عبادة الأصنام.

العظة والعبرة:

يفهم من أسلوب آزر مع إبراهيم عليه السلام أن الذين يستولي الهوى على قلوبهم يرون أنهم

---

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد٤، جـ١٦، صـ٤٨.

على حق؛ ولذلك يصرون على التمسك به، ولا يعرفون معرفاً، ولا ينكرون منكراً إلا ما أشربوا من هواهم، كما جاء في الحديث "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء. حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أَسْوَدَ مِرْبَاداً كَالْكُوْزِ مُجَخِّياً لا يعرف معرفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه."[1]

فآزر كان قد أشرب قلبه بعبادة الأصنام حتى استولى على كيانه –كما أشربت قلوب بني إسرائيل عبادة العجل– ولذلك ضاق ذرعاً بدعوة إبراهيم عليه السلام حتى إنه لم يستطع البقاء معه، والقرب منه، وإنه إن لم يفعل ذلك سيقتله رمياً بالأحجار.

فعلى العبد أن يحيد عن تمكن الهوى في قلبه، والاستيلاء عليه حتى لا تعمى بصيرته، ويغفل قلبه فتبقى لديه القابلية للحق والمعروف إذا دُعى إليه.

و من تآمر الكافرين على رسل الله – عليهم السلام– وإنزال الأذى بهم:

تآمر قوم خليل الله إبراهيم عليه السلام، والإقدام على إحراقه بالنار بعد إنكار إبراهيم عليه السلام عليهم عبادة الأصنام، حيث قال لهم: ﴿ ...أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٦ – ٧١.

مجمل المعنى:

لما أقر الكافرون بأن أصنام لا تنطق، قال لهم –خليل الله– إبراهيم عليه السلام: أيليق بكم أن

---

١ رواه مسلم في باب بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء، عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الحديث)، انظر صحيح مسلم بشرح النووي، جـ١، صـ١٧١، المطبعة المصرية ومكتبتها.

تعبدوا ما لا ينفعكم شيئاً، ولا يضركم، قبحاً لما تعبدون من غير الله تعالى، أليس لكم عقول تفكر؟

فلما عجزوا عن الجدل والمحاجة تداولوا الرأي بينهم، ثم قالوا: حرقوه، فإن الإحراق بالنار أهول ما يُعاقب به من يعتدي على آلهتكم، فانصروها بالانتقام ممن حطمها أن كنتم تريدون الثأر لها ممن أهانها. فبنوا بنياناً، وجمعوا فيه حطباً كثيراً، وأوقدوا النار فيه حتى صار الطائر لا يستطيع أن يمر عليها؛ لشدة وهجها، ثم أوثقوا إبراهيم عليه السلام، ووضعوه في منجنيق، ورموه في النار، فلما ألقوه فيها صرف الله تعالى عنه أذاها، وسلمه من شرها، قال للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت برداً وسلاماً. وأراد النمروذ وقومه أن يضروا إبراهيم عليه السلام، فأنجاه تعالى ورد الله تعالى كيد أعدائه في نحورهم. وكانت نجاة إبراهيم عليه السلام دليلاً على أن الحق لا بد أن يتغلب على الباطل، وذهب إبراهيم عليه السلام بعد نجاته من العراق إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط عليه السلام –و هي الأرض التي بارك الله تعالى فيها ببعث أكثر الأنبياء بها، وانتشار شرائعهم بين العالمين منها، وخصب أرضها– فنزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين في نحو القرن العشرين قبل الميلاد، وذهب لوط إلى المؤتفكة وهي إحدى المدائن التي قُلبت على قوم لوط عليه السلام، وبينهما مسيرة يوم وليلة.[1]

عناصر التهديد:

١. العنصر الأول: إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأصنام التي لا تنفع، ولا تضر من دون الله تعالى، وتقبيحها، والتأفف منها؛ مما جعلهم يتهمونه بعد تحطيمها، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الأنبياء: ٦٠.

٢. العنصر الثاني: إلتجاء قوم إبراهيم عليه السلام إلى التحريق بعد فقدانهم الحجة بدعوى نصر آلهتهم.

العظة والعبرة:

١. إذا تجاوز الطغاة في طغيانهم، وظنوا أنهم قادرون على إنزال الضرر بعباد الله تعالى الصالحين، وأنهم قادرون على استئصالهم؛ رد الله تعالى عليهم كيدهم، وباؤوا بالفشل الذريع الذي يحبط كيدهم ومكرهم. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الرابع، جـ١٧، صـ٣٢-٣٣.

﴿الأنفال: ٣٠. فماذا عسى أن تبلغ قدرة العبد الضعيف مع قدرة العظيم الكبير الذي لا يغالب، وسلطانه الذي لا يقهر.

٢. و من العظة والعبرة أيضاً، أن تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ما كان إلا مثالاً تقع نظائره في صور شتى، ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر، فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة والقاضية؛ وإن هي إلا لفتة صغيرة، فإذا هي تحيي ولا تميت، وتنعش ولا تخمد، وتعود بالخير وهي الشر المستطير [في الأصل]!

إن ﴿ ...يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ لتتكرر في حياة الأشخاص، والجماعات، والأمم، وفي حياة الأفكار، والعقائد، والدعوات، وإن هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول، وتحبط كل كيد؛ لأنها الكلمة العليا التي لا ترد ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾، والمهم أن الله تعالى قد أنجا إبراهيم عليه السلام من الكيد الذي أريد به، وَبَاءَ الكائدون بخسارةٍ ما بعدها خسارة ﴿ ...فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾، هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد.[1]

و هكذا في تدبير الله تعالى أن يحول عوامل النصر إلى عوامل هزيمة، والعكس، والله على كل شيء قدير، وهذا من العظة والعبرة في عناية الله تعالى لعباده المخلصين له دينهم، فلله الحمد والمنة.

النتيجة:

يمكن أن تُقسم النتيجة إلى قسمين: الأول: نتيجة حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه:

فقد كانت النتيجة متناسبة مع من يحاور إبراهيم عليه السلام وهو وَالِدُهُ. فلم يكن فيها غلظة ولا فضاضة بل كانت بهذا الأسلوب الحاني والمؤدب، وهو سلام التوديع والمتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة يقول له: لا أصيبك بمكره بعد، ولا أشافهك بما يؤذيك. وذلك رجاء أن يهديه الله للإيمان كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ... ﴾مريم: ٤٧. أي سأدعوه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة، ويهديك إلى الإيمان كما يلوح به تعليل –قوله تعالى: ﴿

---

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الرابع، جـ١٧، صـ٢٣٨٨.

﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾الشعراء: ٨٦. والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تَبَيُّنُ أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه، وإنما المحظور استدعاؤه المغفرة له مع بقائه على الكفر فإنه لا يجوز ذلك عقلاً ولا نقلاً.

إذاً فقد كانت النتيجة نتيجة تلطف من إبراهيم عليه السلام بأبيه. ولعل إبراهيم عليه السلام كان يرجو إسلامه بعد أن يهجره، ويأخذ فترة استجمام، ولكن الله تعالى قد كتب أنه على رغم هذه الجهود لا يؤمن، ولما تبين لإبراهيم عليه السلام أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى: ﴿...فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ...﴾التوبة: ١١٤.

ثم قرر إبراهيم عليه السلام اعتزال والده، وقومه، وما يعبدون من دون الله، وهو إعلان لموقف المفاصلة النهائية. وهكذا على الداعية عند بذل جميع المعالجات وكل وسائل الاستجلاب ولم تفد، فعليه إعلان المفاصلة على الملأ؛ لكي يتميز موقف الداعية مما يدعو إليه، وأنه لم يستسلم لما يريدونه.[1]

الثاني: نتيجة حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه، حيث تتمثل هذه النتيجة في أمرين:

الأول: إبطال كيد قوم إبراهيم عليه السلام من خرق العادة، وتحويل النار المستعرة إلى بردٍ، وسلامٍ، وحديقةٍ، ومتنفسٍ لإبراهيم عليه السلام ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾. وهكذا نفهم أن كل شيء عند الله تعالى من ذوات العقول، وإن كان في مقياس البشر من الجمادات، فانظر كيف خاطب الله تعالى النار المتوهجة، وأجباته إلى ما طلب، ولم تتخلف لحظة واحدة، وأدت ما أمرت به على أكمل وصف؛ لأنه عليه السلام لجأ إلى الله تعالى، وترك غيره فقال: حسبي الله، ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: **"حسبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾**آل عمران: ١٧٣ ــ ١٧٤.[2]

الثاني: إنجاء الله تعالى إبراهيم ولوطاً –عليهما السلام– إلى الأرض المقدسة بعد أن كانا في

---

١ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٤، صـ٢٤٤.

٢ قصص الأنبياء، للأمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، جـ١، صـ٢٠٥.

أرض التآمر عليه والكيد له وهي أرض العراق، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾الأنبياء: ٧١، وهي أرض الشام التي هاجر إليها مع ابن أخيه لوط –عليهما السلام– فكانت مهبط الوحي فترة طويلة، وبُعث الرسل من نسل إبراهيم عليه السلام، وفيها ثالث الحرمين الشريفين، وأولى القبلتين، وفيها بركة الخصب، والرزق إلى جانب بركة الوحي، والنبوة جيلاً بعد جيل.[1]

❖ **نبي الله شعيب** عليه السلام:

و من تهديد الطغاة بالرجم لأنبياء الله –عليهم السلام– وعباده الصالحين:

تهديد الطغاة من قوم شعيب عليه السلام لنبي الله شعيب عليه السلام بقولهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾هود: ٩١ – ٩٢.

مجمل المعنى:

استمر أهل مدين في مناقشة شعيب عليه السلام، ونفوا أنهم يفهمون كثيراً من الأمور التي يدعو إليها: كترك عبادة الأصنام، وترك استثمار أموالهم على طريق التطفيف في الكيل والنقص في الميزان. وأغلظوا له في الخطاب فألدوا له: إنه رجل ضعيف بينهم ولو أرادوا أن يفتكوا به لفعلوا، وأخبروه أنه لو لا أنه من قوم أعزة عليهم، بسبب بقائهم على ملتهم لقتلوه رمياً بالحجارة. فأنكر عليهم دعواهم أن رهطه أعز من الله تعالى. وبين لهم أن الله تعالى يعلم كل شيء، وسيجازي كلاً بعمله. وأما آلهتهم، ورهطهم، وأموالهم فلن تغني عنهم من الله شيئاً.[2]

عناصر التهديد:

١. العنصر الأول: تجاهل قوم شعيب عليه السلام قوله، وعدم فهمه: : ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ

---

١ المجرع السابق جـ٤، صـ٢٤٤. وغرائب القرآن، للنسيابوري، المجلد التاسع، جـ١٧، صـ٣٢. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، جـ٣، صـ١٨٤.

٢ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الثالث، جـ١٢، صـ٧١، [بتصرف].

كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ... ﴾ .

٢. العنصر الثاني: رميه بالضعف، وعدم القوة: ﴿ ...وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ... ﴾ .

٣. العنصر الثالث: تهديده بالرجم لولا جماعته: ﴿ ...وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ... ﴾ .

٤. العنصر الرابع: بيان أنه ليس له عندهم احترام أهل العزة: ﴿ ...وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ... ﴾ .

كل هذه الأمور ظاهرها التهديد لشعيب عليه السلام، وفقدان هيبته، وعدم الخوف منه؛ ولكنها لم تفت في عضد شعيب عليه السلام، وتثنيه عن رسالته بدليل رده عليهم بقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ ، ثم هددهم بأن الله تعالى محيط بأعمالهم، وسيحاسبهم عليها حساباً عسيراً، فقال: ﴿ ... إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ... ﴾. فليس المراد مجرد الإخبار عن إحاطة الله تعالى بعملهم فقط بل المراد الوعيد الشديد على كفرهم، وتهديدهم لشعيب عليه السلام، وأنه تبارك وتعالى سيحاسبهم، ويعاقبهم على ذلك العقاب المناسب لعملهم.

العظة والعبرة:

العظة والعبرة هي سوء مصير قوم شعيب عليه السلام المهددين له بالرجم بأن صاح عليهم جبريل عليه السلام؛ فهلكوا جميعاً، وأصبحوا في ديارهم مَيِّتِيْنَ جثثاً هامدة كأنهم لم يقيموا في ديارهم، متصرفين في أطرافها، متقلبين في أكنافها . وأخبر الله تعالى عن بعدهم عن رحمته كما أبعد ثمود. وهنا سر بلاغي في مقام الإظهار مقام الإضمار حيث كان المقام "ألا بعداً لهم" لكنه سبحانه وتعالى أظهر، وقال: ﴿ ...لِّمَدْيَنَ ... ﴾؛ ليكون أدل على طغيانهم الذي أداهم إلى هذه النتيجة، ولكي يكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم –أعني ثمود– وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم؛ لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة، غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم، وأولئك من تحتهم.[1]

النتيجة:

لقد كانت نتيجة تهديد شعيب عليه السلام، هي إعلان المفاصلة، ودعوتهم إلى ترقب النهاية

١ تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٣، صـ٣٤٧.

الوخيمة التي ستحل بهم، العذاب الأليم، حيث قال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ امضوا على طريقتكم، وامضوا على صفتكم فقد نفضت يدي منكم، ﴿ ...إِنِّي عَٰمِلٌۖ... ﴾ على طريقتي ومنهجي، ﴿ ...سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ ... ﴾، أنا أم أنتم. ﴿ ...وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾، للمعاقبة التي تنتظركم، وتنتظرني. وفي هذا التهديد ما يوحي بثقة شعيب عليه السلام بالمصير، كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطرق.

و هنا يسدل الستار على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة، وعلى هذا الافتراق، والمفاصلة؛ ليرفع هناك على مصرع القوم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم. أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر، مضوا مِثْلَهُمْ مُشَيَّعِيْنَ باللعنة، طويت صفحتهم في الوجود، وصفحتهم في القلـــــوب: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥ ﴾ هود: ٩٤ ــ ٩٥.

و طويت صفحة أخرى من الصفحات السود، حق فيها الوعيد على كل من كذبوا بالوعيد.[1]

❖ نبي الله موسى عليه السلام:

و من التآمر على الرسل بالقتل والطرد:

تآمر الأقباط من أهل مصر على موسى عليه السلام كما ذكره الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١ ﴾ القصص: ٢٠ ــ ٢١.

مجمل المعنى:

---

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الرابع، جـ١٢، صـ١٩٢٣.

عند ما شاع في المدينة خبر قتل موسى عليه السلام للفرعوني جاء على عَجَلٍ رجلٌ كان حاضراً مجلس فرعون، وأخبره أن أشراف المدينة مجتمعون يتشاورن في أمره ليقتلوه، ونصحه أن يعجل بالخروج من المدينة –فهو ناصحٌ له مريدٌ لمصلحته. سمع موسى عليه السلام نصيحة هذا الرجل، وخرج من المدينة خائفاً وجلاً، منتظراً ما يحدث فإما أن يدركه القوم، ويقبضوا عليه، ويردوه إلى المدينة؛ ليقتلوه تنفيذاً لحكم المؤتمر الذي اجتمعوا فيه، وقرروا قتله بموافقة فرعون. وإما أن ينجو بنفسه فلا يدركه أحد، وكان يدعو الله تعالى أن ينجيه من هؤلاء الظالمين، وقد استجاب الله تعالى له دعاءه، فنجاه، وخرج إلى مدين سالماً.[1]

عناصر التهديد:

١. العنصر الأول: اجتماع أشراف مجلس فرعون ليناقشوا أمر القضاء على موسى عليه السلام.

٢. العنصر الثاني: اتفاق الأشراف على أن يقتلوا موسى عليه السلام، ويتخلصوا منه.

العظة والعبرة:

إن التآمر على الحق وأهله دأب أغلب أشراف القوم في كل زمان ومكان؛ خوفاً على ذهاب شرفهم وهيمنتهم بين القوم لوجود من هو أصلح منهم للعباد والبلاد، ولكن الله تعالى ينصر عباده المؤمنين، فيجند لهم من يكشف تلك المؤامرة الماكرة، ويبلغ بها أولياءه، فينجون بأنفسهم عن كيد تلك المؤامرة، وهو تحقيق لوعد الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل: ١٢٨. فهي معية الله تعالى التي قال عنها جل وعلا: ﴿ ... كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾الشعراء: ٦٢، المعية بالحفظ، والمعية بالنصر لأوليائه تبارك وتعالى. فانظر كيف نجى الله تعالى موسى عليه السلام من قتل فرعون إياه، وفضح مخططاته وملائه. فما على العبد إلا أن يكون مع الله تعالى فيكون الله تعالى معه.

و من العظة والعبرة –أيضاً– أن العبد إذا رجع عند ضره إلى ربه تعالى بإخلاص واستسلام إليه؛ فإنه تعالى يجيبه. فهذا موسى عليه السلام، وقد خاف أن يدركه الطلب لقتله، عاد إلى ربه تعالى فقال: ﴿ ...رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فنجاه الله مما خافه، وزاده نعمة الهجرة الطويلة إلى

١ غاية البيان في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الرابع، جـ٢٠، صـ٤٤.

مدين، وزوجه بابنت شعيب عليه السلام بعد أن أعطاه الأمان، حيث قال له:﴿ ...لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾القصص: ٢٥.

و والى عليه النعم حتى جعله يعود إلى فرعون رسولاً صاحب سلطان عليه من الله، آمراً، وناهياً، وداعياً، وهادياً، وليس خائفاً يترقب. وهكذا يأتي الفرج مع الكرب، والرخاء عند الشدة؛ كما روي عن الصادق المصدوق ﷺ "... واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً".[1]

و من تهديد الطغاة بالقتل لعباد الله الصالحين:

تهديد فرعون لسحرته بالقتل، والصلب على جذوع النخل؛ قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾طه: ٧٠ ــ ٧٣.

مجمل المعنى:

إن للإيمان لمسات تحرك كيان الجسم البشري، وتكاد تقلبه رأساً على عقب حتى لا تبقي له شيئاً من رأي أو إرادة فهي أقوى تأثيراً من الموجات الكهربائية وتياراتها. إنها لمسة تصادف العصب الحساس، فيفيض على الجسم كله، وتصادف الزر الصغير فينبعث النور، ويشرق الظلام. إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

و لكن أنَّى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف، وأنَّى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟

---

١ نسبه العلامة ابن رجب الحنبلي إلى الإمام عبد بن حميد في مسنده بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن العباس، وكذلك عزاه ابن الصلاح في الأحاديث الكلية التي هي أصل أربعين الشيخ –رحمه الله– إلى عبد بن حميد، وغيره. وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة؛ من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وعبد الله بن عبد الله، وعمر مولى عقدة، وابن أبي مليكة، وغيره. أ.هـ، أنظر جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، العلامة زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي، جـ٢، صـ٧٨-٧٩، منشورات المؤسسة السعيدية بالرياض، مطبعة الكيلاني، ١٩٨٢م.

وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا، ورأوا الاتباع ينقادون لإشارة منهم. نسوا أن الله تعالى هو مقلب القلوب، وأنها تتصل به، وتستمد، وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ... ﴾. قول الطاغية الذي لا يدرك أنهم أنفسهم لا يدركون –وقد لمس الإيمان قلوبهم– أن يدفعوه عنها والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

﴿ ...إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ... ﴾. فذلك سر الاستسلام في نظره. لأنه الإيمان الذي دب على قلبوهم من حيث يجتنبون، ولأنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال. وفي قوله "الذي علمكم السحر" فتواطأتم عليه وعلمكم شيئاً دون شيء؛ فلذلك غلبكم، وهذه شُبَهٌ زورها اللعين وألقاها على قومه، وأراهم أن أمر الأيمان منوط بإذنه. ثم جاء التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلطونه على اللحوم والأبدان حين يَعِزُ قهر القلوب والأرواح.

﴿ ...فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ... ﴾. تم لاستعلاء بالقوة القاسمة، قوة الوحوش في الغابة، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب.

﴿ ...وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾. ولكنه كان قد فات الأوان، كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل، فإذا هي قوة قويمة، وإذا القوى الأرضية ضئيلة ضئيلة، وإذا الحياة الدنيا زهيدة زهيدة؛ ولهذا قالوا –كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾. فسلطانك مقيد في الحياة الدنيا، ومالك من سلطان علينا في غيرها، وأنت إنما تقدم لنا معروفاً في أن تعجل بنا من عناء الدنيا إلى نعيم الآخرة الأبدي.[1]

عناصر التهديد:

---

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الأول، جـ٤، صـ٢٣٤٢-٢٣٤٣. في تفسير القرآن الكريم، محمود محمد حمزة، وآخرون، المجلد الرابع، جـ١٦، صـ١٠٠-١٠١. تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٤، صـ٢٩٤.

بعد أن آمن سحرة فرعون هددهم فرعون بعدة أشيئا من أبرزها:

١. العنصر الأول: قول فرعون: ﴿ ...إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ... ﴾. بقصد أنكم تواطأتم علي ما فعلتم وأن موسى علمكم شيئاً دون شيء فلذلك غلبكم، وهذه الشبهة زورها اللعين، وألقاها على قومه ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد.
٢. العنصر الثاني: ﴿ ...فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ... ﴾. أي لأقطعن اليد اليمنى ثم الرجل اليسرى، أي لأقطعنها مختلفات. وتعيين تلك الحالة للإيذان بتحقق الأمر، وإيقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة في باب السياسة لا لأنها أفظع من غيرها.
٣. العنصر الثالث: ﴿ ...وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ... ﴾. أي عليها، وهنا سر بلاغي في أيثار كلمة "فِي" بدلاً عن "على"؛ وذلك للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً تشبيهاً باستمرارهم عليها باستقرار المظروف المشتمل عليه، وهناك سر بلاغي آخر وهو أن صيغة التفعيل في الفعلين جيء بها؛ لتدل على التكثير.
٤. العنصر الرابع: ﴿ ...وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾. وهذا كان من غروره حيث يرى أن عذابه أشد من العذاب الذي حُذِرُّوا منه، وهو يدل على أن مراد فرعون بقوله هذا مقابلة قول المؤمنين: ﴿ ...وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، أي خيرٌ منك يا فرعون، وأبقى عملاً من عملك، فثوابه خير من رضاك، وعذابه أشد من عذابك.[١]

العظة والعبرة:

عند ما يقيم الداعية إلى الله تعالى حجته الساطعة وبراهينه القاطعة لا يسع الخصم المعاند إلا أن يُسْلِمَ ويَسْتَسْلِمَ بدون تلكؤ أو تأخر قهراً عليه، فهاهم السحرة البارعون في السحر عند ما أدركوا أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس سحراً، وإنما هو حجة الله القاهرة لسحرهم الذي لا يغلبه البطلة أُلْقُوا –بدون إرادة– ساجدين لله رب العالمين، الذي أيد موسى عليه السلام بالحجة القاهرة. ومن هنا يستفيد الداعية أن يحرص كل الحرص على اختيار الحجة البالغة التي تجبر الخصم على التسليم.

---

١ التحرير والتنوير، لابن عاشور، جـ١٦، صـ١٥٣. تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي الحنفي، جـ٤، صـ٢٩٥.

و من العظة والعبرة في هذه الآيات والحوار نستفيد أن الإيمان إذا استولى على القلوب حركت القوالب كلها نحو مقتضى الإيمان، وعدم إيثار غيره مهما كان فيه من الترغيب أو الترهيب؛ ولهذا قال السحرة بعد الإيمان والسجود –كما قال تعالى: ﴿ ...لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾. فنسأل الله أن يملأ قلوبنا بنور الإيمان الذي لا يخبو، ولذته التي لا تتغير، إنه ولي ذلك والقادر عليه، آمين!

النتيجة:

يمكن أن تُقَسَّمَ النتيجة إلى قسمين:

الأول: نتيجة حوار موسى عليه السلام مع فرعون وملائه:

فقد كانت النتيجة هي نجاة موسى عليه السلام من تآمر فرعون وملائه المتآمرين عليه وكان هذا على يد شعيب عليه السلام بسبب لجوئه السياسي إليه استجابة لدعوة موسى عليه السلام حيث قال: ﴿ ...رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **القصص:** ٢١. وكانت هذه النتيجة واضحة في قوله تعالى عن شعيب عليه السلام وقد قص عليه القصص: ﴿ ...لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ **القصص:**٢٥. بل زاده فوق ذلك نعماً أخرى، والتي منها تزويج موسى عليه السلام بابنة شعيب عليه السلام، وطيب الإقامة في حماية شعيب عليه السلام عشر سنين، ثم تتويجه بما لم يكن يخطر ببال موسى عليه السلام ولا غيره، وهو إرساله لدعوة فرعون وقومه إلى الله تعالى بدلاً من كونه كان مطارداً خائفاً؛ فسبحان اللطيف الخبير الذي يؤتي ملكه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، جعل المطلوب طالباً وحاكماً!

* **فائدة:** والقول بأن هذا الشيخ هو شعيب عليه السلام هو أرجح الأقوال عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصري، والإمام مالك بن أنس –وهو أحد أقوال ستة.[1]

الثاني: نتيجة معارضة السحرة لفرعون:

حيث أن النتيجة أصبحت على خلاف ما كان يرجوه فرعون، وملأه، وقومه، فرد الذين

---

١ قصص الأنبياء، للأمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، جـ٢، صـ١٧-١٨. [وقد ذكر الأقوال الستة، فارجع إليها إن شئت].

كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، ورد كيدهم في نحورهم، وسهامهم في صدورهم، وانتصر الحق، وزهق الباطل، وذهب الزبد جُفَاءً، وبقى ما ينفع الناس. فبعد أن جاء السحرة إلى فرعون في بداية الأمر يساومونه على عرض من الدنيا قليل، ويطمعون بما عنده من النعيم؛ انقلب الأمر، وعاد السحر على الساحر، فهاهم بعد المناظرة والتحدي صار الإيمان يشع من قلوبهم، وتنطق به أفواههم، فهم الآن يطمعون بما عند الله تعالى من نعيم الآخرة الأزلي الذي لا ينفد ولا ينقطع، وأصبحوا في صف موسى عليه السلام بعد أن كانوا ضده.

فيجب على الطغاة أن يعلموا أن هذه مصارعهم، وإن حاولوا الفرار منها، وإن هذه نهايتهم، وإن حاولوا الانتهاء إلى غيرها. فعليهم أن يغيروا ما بأنفسهم؛ حتى يغير الله ما بهم، ويختم لهم بالخاتمة الحسنة.

❖ نبي الله محمد ﷺ:

ومن المؤامرة على الرسل وأتباعهم:

مؤامرة قريش على النبي ﷺ على قتله، أو حبسه، أو إخراجه من مكة المكرمة، كما ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنفال: ٣٠.

و قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۚ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ التوبة: ٤٠.

مجمل المعنى:

و اذكر وقت أن كان يمكر بك الذين كفروا، ويبيتون لك الكيد مجتمعين في دار الندوة، فمنهم من أشار بأن يُثَبِّتُوكَ بالقيد، ويشدوك بالوثاق، ويحبسوك حتى الموت. ومنهم من أشار بأن يخرجوك من بلدك، وينفوك عن وطنك، أو يقتلوك. وهم يمكرون، ويدبرون الغدر بك، والله يرد مكرهم عليهم، ويحبط تدبيرهم. وتدبير الله تعالى في نجاتك، وفرارك من أيديهم أنفذ من مكرهم،

وأبلغ في النكاية بهم من حيث لا يشعرون.[1]

و هي مؤامرة تشمل ثلاثة أنواع من الكيد للنبي ﷺ، وكانت هذه الأنواع من الكيد للنبي ﷺ هي ما عرض من الآراء من صناديد كفار قريش. فقد كان الإخراج، أو الطرد، أو الحبس، أو القتل هي أبرز الآراء، ولم يذكر القرآن الكريم ما الذي اصطفوه منها، ونفذوه. ولكن في سورة التوبة بين الله تعالى أن الذي تم هو الإخراج –كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ التوبة: ٤٠.

ففي سورة الأنفال ذكر المؤامرة الغادرة التي جرت في دار الندوة، وذكر من الآراء التي طرحت الإخراج للنبي ﷺ من مكة المكرمة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة التوبة، آية رقم (٤٠)، حيث قال تعالى: ﴿ ...إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ... ﴾.

ففي سورة الأنفال تم التآمر والمشاورة بين كفار قريش على الاستراحة من محمد ﷺ بأي وسيلة: إما الحبس، وإما الإخراج والطرد، وإما القتل وترجيح القتل على الكيفية التي اختاروها، ولكنها لم تتم لأن مكر الله تعالى قد غلب مكرهم، فكشف الله تعالى هذه المؤامرة للنبي ﷺ، ودبر الله تعالى له الخروج دون القتل، وبكونهم كانوا السبب في الإخراج أسنده إليهم حيث أخرجه مع أبي بكر الصديق ﷺ، وغلام أبي بكر عامر بن فهيرة.

و هذا التدبير للخروج قد ذكره الله تعالى بصورة الإخراج المباشر الذي أسنده تعالى إلى كفار قريش في سورة التوبة، حيث قال لائماً لمن تقاعس عن نصره: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ التوبة: ٤٠. أي إن كنتم لا تعينون النبي ﷺ، وتقعدون عن الخروج معه إلى الغزو، وتركتم نصره فالله تعالى كفيل بنصره، فقد نصره وهو في قلة قليلة هو والصديق أبو بكر ﷺ –على العدو في كثرته ومنعته– يوم أن لجأ كفار قريش إلى إخراجه من مكة المكرمة وليس معه أحد إلا صاحبه أبو بكر ﷺ؛ ونصره حين اختبأ في ثقب في أعلى جبل ثور جنوبي مكة، وليس له واقٍ أو عاصم هو وصاحبه أبو بكر الصديق ﷺ إلا الله تعالى، وقد خشي أن ينال النبي ﷺ سوء، وظن أن الكفار الذين تعقبوهما لو نظروا تحت أقدامهم لأرهما،

١ المرجع السابق نفسه، ص١٤١.

فضمه النبي ﷺ إلى صدره، وهدأ من روعه، وقال له: "**لا تحزن إن الله معنا، ينصرنا، ويرعانا، ويحفظنا، ويتولانا.**" وقد أنزل الله تعالى الهدوء، والطمأنينة، والسكينة، والأمن على قلب نبيه ﷺ؛ لأنه مؤمنٌ بقوته، واثقٌ بنصره، وقد أحاطه، وقواه بجنودٍ من الملائكة لم يراها أحد من الناس بعينيه، فصرفت عيون المشركين عنه، ودك الشرك، وأحبط كلمته، وهوى بها إلى الدرك الأسفل، وأعلى الدين، ورفع رايته، فلن يقدر أحدٌ على خفضها مهما كانت قوته، وكثر جيشه وعدته. سبحانه! ولهذا وصف الله تعالى نفسه، فقال: ﴿ ...وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾، فهو الذي لا يغلبه غالب، والحكيمُ الذي يضع كل شيء في موضعه، ولا يخرج تصرفه عن السداد والحكمة في تأييده وتدبيره.

ففي سورة الأنفال تحت المؤامرة والتخطيط –كما ذكرناه أنفاً، وفي سورة التوبة كان التنفيذ وفق تدبير الله تعالى ومكره، كما قال تعالى: ﴿ ...وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾الأنفال: ٣٠.

عناصر التهديد:

١. العنصر الأول: عنصر التهديد بالحبس، وكان هذا رأي أبي البختري، أن يحبسوه في بيت، ويشدوا وثاقه، ويسدوا عليه بابه غير كُوةٍ يلقون عليه طعامه وشرابه منها، ويتربصوا به ريب المنون.

فقال إبليس: بئس الرأي يأتيكم من يقاتل من قومه ويخلصه من أيديكم.

٢. العنصر الثاني: الإخراج والطرد من مكة المكرمة، وكان هذا رأي هشام بن عمرو، فقال: رأيي أن تحملوه على جمل، وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما يصنع، واسترحتم منه. فقال إبليس: بئس الرأي يعد قوماً غيركم، ويقاتلكم بهم.

٣. العنصر الثالث: قال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطنٍ غلاماً، وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل؛ فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل [أي الدية] عقلناه، واسترحنا. فقال إبليس: صدق هذا الفتى. هو أجودكم رأياً فاتفقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فاخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، وأمره أن لا يبت في مضجعه.

و أذن الله تعالى له بالهجرة، فأمر علياً رضي الله عنه، فنام في مضجعه، وقال له تسجَّ ببردي

فإنه لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه، ودعا الله تعالى له أن يُعَمِيَ عليهم أثره. وباتوا مترصدين، لكن الله تعالى طمس عليهم بصيرتهم، فخرج ولم يره أحد، فلما أصبحوا ساروا إلى مضجعه، فرأوا علياً ﷺ؛ فبهتوا. وخيب الله تعالى سعيهم، وخرج هو وأبو بكر الصديق ﷺ إلى الغار ثم تمت هجرته إلى المدينة المنورة بسلامة الله تعالى، ولم ينفذوا ما أرادوه به. وهذا هو مكر الله تعالى بهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ ...وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾الأنفال: ٣٠.

العظة والعبرة:

١. أن الله تعالى قد بين أنه متكفلٌ بنصر نبيه ﷺ، إن تخلى عنه الناس، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ التوبة: ٤٠.

٢. أن النصر يكون مع الصبر، والفرج مع الكرب، فعندما صبر النبي ﷺ على كل أنواع الأذى من المشركين، واشتد عليه الكرب، جاءه الفرج والنصر على أعدائه.

٣. ما تضمنه النص من تضحية بالمال، والأهل، وراحة النفس. فقد فارق النبي ﷺ وصاحبه ﷺ أهله، وماله، وفراشه الوطيء ليسكن الغار الذي فراشه الصخر، وغطاؤه الصخر، وطعامه القليل من الخبز والحليب، وترك منزله الآمن ليسكن تحت بحث المشركين، وتحسسهم، وكل هذا من أجل نصرة دين الله تعالى.

٤. بيان أن مَعِيَةَ الله تعالى مع الذين اتقوا والذينهم محسنون. ومن كان الله معه فلا يضره خوفٌ ولا حزنٌ قال تعالى: ﴿ ...إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ... ﴾.

٥. إن الكافرين مهما دبروا، وخططوا للمكر والكيد برسل الله تعالى وأتباعهم، وبذلوا كل محاولة ووسيلة لذلك فإن الله عز وجل سيفشل، ويزهق ذلك وفاءً بوعده، قال تعالى: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ ﴾ الإسراء: ٨١.

٦. ما تضمنته الآيات –من سورة التوبة– من البشارة الكبرى أن الله تعالى كتب العلو والغلبة لكلمته: وهي دين الإسلام. حيث ستبقى راية الإسلام عاليةً،

خفاقةً، مرفوعةً مهما حاول أعداؤه النيل منها فستبقى مرفوعةً إلى يوم القيامة على أيدي حملتها، كما قال سيد الخلق ﷺ مبشراً بذلك: "**لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون**"، متفقٌ عليه، عن المغيرة رضي الله عنه.[1]

٧. انظر كيف مَكَرَ الله عز وجل بهم، وأفشل مخططهم، وأخرج النبي ﷺ من بين عصابتهم الشبابية سالماً! فعلى الطغاة أن يفهموا هذا الدرس، وأن لا يضيعوا جهودهم بغير طائل؛ فيكونوا كالذي يمشي إلى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فالسعيد من اعتبر بغيره، فيبدأ من حيث انتهى، ولا يبدأ بالتجربة من جديد، والله أعلم!

النتيجة:

لقد كانت النتيجة هي الفشل لمخطط صناديد قريش والمؤتمر الذي حضره كبراؤهم حتى إبليس المعلم الكبير لهم كل كيد، وحيلة، مكر.

و بالجانب الآخر كانت النتيجة هائلة دون تصور الإنسان. فقد كانت هي الهجرة الكبرى بالأمة من حياة الهوان والذل إلى حياة القوة والعزة، ومن حياة العبودية لغير الله تعالى إلى حرية الدين والعقيدة، ومن حياة استبداد صناديد قريش إلى حياة العزة والمنعة. فقد كانت نقلة هائلة بالأرواح والأبدان إلى الملك الدَيَّانِ –سبحانه وتعالى. كانت من أرض يُذِلُ محمداً ﷺ وأصحابَه أهلها إلى بلد وجدوا فيه العزة، والمنعة، واستقامة الحال، ووجدوا فيها النصر والأنصار –الذين تبوؤوا الدار الإيمان. لقد كانت النتيجة هي الفتح الأعظم للإسلام والمسلمين، لقد كانت هجرةٌ من جور الكفر والكبر إلى عدل الإيمان، والتوحيد، والإسلام. فلقد كانت تجربة أعقبها أُنْسٌ وعِزٌ، ولقد صدق الشاعر العربي إذ قال، من بحر الطويل:

إذا كنت في أرض يذلك أهلها * و لم تك ذا عزٍ بها فتغرب.**

فإن رسول الله لم يستقم له * بمكة حال فاستقام بيثرب.**

قال سيد قطب –رحمه الله: ويمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله. انطلق الإسلام في الأرض

---

١ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، لمحمد المدعو عبد الرؤف المنياوي، جـ٦، صـ٣٩٥، ط الأولى، مطبعة مصطفى محمد(المكتبة التجارية الكبرى) ، شارع محمد علي، مصر، ١٣٦٥هـ، ١٩٨٣م.

يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوحات التحريرية الفريدة.[1]

فقد نجحت خطة النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق ﷺ حتى تم النصر، والنجاة، والوصول إلى الغاية وهي المدينة المنورة –على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

الخلاصة:

تكمن الخلاصة فيما ذكره الله تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام أن التهديد بالإخراج دأب جميع الكافرين لرسلهم، ولم يستثن أحداً من التهديد، فقد لخصت هذه الآيات الكريمات ما سعى، ويسعى، وسيسعى إليه الطغاة والجبابرة تجاه من يبلغون رسالة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾إبراهيم: ١٣ – ١٤.

مجمل المعنى:

عند ما أعلن المؤمنون أمام الكافرين توكلهم على الله تعالى، وتصميمهم على السير في طريقهم، والصبر على أذى الكافرين بغير مبالاة بقولهم –كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ إبراهيم: ١٢.

هنا يسفر الطغيان عن وجهٍ لا يجادل، ولا يناقش، ولا يفكر، ولا يعقل؛ لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة، فيسفر بالقوة المادية والغلظة التي لا يملك غيرها المتجبرون –قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ ... ﴾، هنا تتجلى حقيقة المعركة، وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية، وأن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها، ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها.

و هي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها، فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تَجَمُّعٍ حَرَكِي

---

١ في ظلال القرآن، سيد قط، المجلد الثالث، جـ١٠، صـ١٦٥٧.

مستقل بقيادة مستقلة، وولاء مستقل، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية؛ لذلك يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن يندمجوا في مجتمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى كيان مستقل، وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله، وما يرفضه الرسل، ويأبون للمسلم أن يندمج في المجتمع الجاهلي مرة أخرى. وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة، ولا يبقى مجال لحجة.

إن التجمع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله، إلا أن يكون عمل المسلم، وجهده، وطاقته لحساب التجمع الجاهلي، ولتوطيد الجاهلية. والذين يُخيَّل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي، والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع الجاهلي. هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع، ولحساب منهجه، وتصوره؛ لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله تعالى منها، وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها القاضية المدمرة، التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل، وإن كانوا طغاة متجبرين قال تعالى: ﴿ ...فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾إبراهيم: ١٣ – ١٤.

ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وأقوامهم إنما يكون دائماً بعد مفاصلة الرسل لأقوامهم، فهذه بتلك. وهي سنة الله تعالى في الدعوة والدعاة، وهذه الغاية الكبرى لا تكون إلا لمن خاف مقام ربه، وخاف وعيده.

إن ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامي فلم يتطاول، ولم يتعال، ولم يستكبر، ولم يتجبر ﴿ ...وَخَافَ وَعِيدِ ﴾، فحسب حسابه، واتقى أسبابه، فلم يفسد في الأرض، ولم يظلم في الناس، فهو من ثَمَّ يستحق الاستخلاف، وينالَه.[1]

العظة والعبرة:

عندما يتجاوز الطغاة حدهم، ويركبهم البطر، والأشر، والغرور، ويرغون في وعيدهم، ويزبدون، ويتبجحون في وعيدهم لرسل الله –عليهم السلام– وأولياء الله تعالى، ويرون أنهم قادرون أ ن يفعلوا ما يشاءون؛ يَرُدُّ الله تعالى عليهم بأنه قادر على أن يفعل ما يشاء دونهم، فهو

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الرابع، جـ٢٦ ، صـ٢٠٩٢-٢٠٩٣.

على كل شيء قدير. فهو القادر على استئصالهم بالهلاك، وإحلال رسل الله -عليهم السلام- واتباعهم محلهم.

﴿...فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ هكذا جاء الرد بنون العظمة والتوكيد، كلتاهما ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد. لنهلكن المتكبرين، المتجبرين، المهددين، المشركين، الظالمين لأنفسهم، وللحق، والرسل، والناس بهذا التهديد. ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ... ﴾، لا محاباة، ولا جزافاً، إنما هي السنة الجارية العادلة. ﴿...ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾، ذلك الإسكان، والاستخلاف لمن خاف مقامي فلم يتطاول، ولم يتعال، ويستكبر، ولم يتجبر. فخاف وعيد، فحسب حسابه، واتقي أسبابه فلم يفسد في الأرض، ولم يظلم الناس فهو من ثم يستحق الاستخلاف، وينال باستحقاق. وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة-قوة الطغاة الظالمين- بالقوة الجبارة الطامة قوة الجبار المتكبر سبحانه وتعالى. فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين، والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين.

النتيجة:

لقد كانت النتيجة -بالنسبة للكافرين- عقيمة مرة. ما كان يدور في خلدهم هذه النتيجة فقد كانت النتيجة هي نصرة الحق وأهله، وتبشير الرسل بإهلاك عدوَّهم، واستخلافهم من بعدهم، وإسكانهم أرضهم بعد إهلاكهم، وهكذا صدقت سنة الله تعالى: ﴿...وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾الأنفال: ٣٠.

❖ الخاتمة

من خلال دراستنا السابقة تَبَيَّنَ لنا أن سنة الله تعالى في خلقه للابتلاء، والاختبار، فكلٌ يبتليه الله تعالى بما ينغص عيشته، ويكدر عليه حياته ومعيشته في محيطه، وبما يتناسب معها كلُ على قدره. وأكثر الناس بلاءً، واختباراً الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– فالأولياء، فمن يليهم، كما جاء في الحديث **"أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل. يبتلى الرجل على حسب دينه. فإن كان في دينه صُلباً؛ اشتد بلاؤه. وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه. فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة"**.[1] وذلك ليزيد أجورهم. وقد فهمنا من خلال دراستنا السابقة في ابتلاء الأنبياء– عليهم الصلاة والسلام– وأتباعهم كيف لون الله تعالى ابتلاءهم: فتارة بالسخرية والاستهزاء، وتارة بالتهديد بالقتل، وتارة بالتهديد بالإخراج والطرد، وتارة بالرجم، ولكنهم صمدوا، وصبروا على ما صدر من أعدائهم من تكذيب وأذاً.

و لقد سنوا لأتباعهم ومن بعدهم السنة الحسنة في الصبر على الابتلاء فما علينا إلا الإقتداء، والتأسي بهم؛ تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿ **فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ﴾ **الأحقاف: ٣٥**.

و قد درسنا فيما سبق ما فعله بعض أقوام الرسل بهم من الاستهزاء بهم، والتهديد بالطرد، أو الرجم، أو الإخراج، بدأً من رسول الله نوحٍ عليه السلام وانتهاءً بالنبي ﷺ خاتم الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام.

و إذا تحلينا بما تحلى به رسل الله تعالى –عليهم الصلاة والسلام– في المصابرة على كل البلايا؛ فإن حياة الأمة ستصلح كما صلحت الأجيال التي حققت الأسوة برسلها، وستصنع الأمة المثالية التي ستكون رائدة للأمم، وقدوة حسنة. فإنه لن يُصْلِحَ آخر الأمة إلا ما أصلح أولها.

و علينا أن نعلم أن الله عز وجل قد أخبرنا بعداوة المردة من الإنس والجن للأنبياء وأتباعهم،

---

١ رواه أحمد، والبخاري، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي عن سعد بن أبي وقاص. وقد رمز الإمام السيوطي لصحته في كتابه الجامع الصغير. انظره مع شرح فيض القدير، جـ١، صـ٥١٨.

وهي ابتلاء منه تعالى، وبجعله وقدره؛ ليزيد في حسنات الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾الأنعام: ١١٢ – ١١٣.

وقد انتهى سيد قطب –رحمه الله تعالى– بعد تقريراته لمعاني هذه الآيات إلى خلاصات أربع، حيث قال –رحمه الله تعالى: فمالذي يخلص لنا من هذه التقريرات؟

- يخلص لنا ابتداءً: أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي؛ يقفون بالأذى لأتباع النبي ... ((هم الشياطين))!. شياطين من الإنس ومن الجن... وأنهم يؤدون جميعاً –شياطين الإنس والجن– وظيفة واحدة! وأن بعضهم يخدع بعضاً، ويضله. كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد، والغواية وعداء أولياء الله.
- و يخلص لنا ثانياً أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله، ولا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء، وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم. إنما هم في قبضة الله تعالى. وهو يبتلي بهم أولياءه لأمر يريده. ومن تمحيص هؤلاء الأولياء، وتطهير قلوبهم، وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء. فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء. وكف عنهم هؤلاء الأعداء. وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيدهم بالأذى وراء ما قدر الله تعالى. وآب أعداء الله بالضعف والخذلان؛ وبأوْزَارِهم كاملة يحملونها على ظهورهم: ﴿ ...وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ... ﴾.
- و يخلص لنا ثالثاً: أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا –فهو إنما يبتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار والقدرة – وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان، فهو إنما يبتلي أولياءه كذلك لينظروا: أيصبرون؟ أيثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل؟ أيخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم، ويبيعونها بيعة واحدة لله، على السراء والضراء سواء. وفي المنشط والمكره سواء؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شيء من هذا الذي كان!
- و يخلص لنا رابعاً: هو أن الشياطين من الإنس والجن، وهو أن كيدهم وأذاهم، فما يستطيلون بقوة ذاتية له؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذان الله تعالى به على أيديهم...

والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر، وهو الذي يأذن، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدَّعى. ومن هنا هذا التوجيه العلوي لرسول الله الكريم ﷺ: ﴿ ...فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

دعهم وافتراءهم، فأنا من ورائهم قادر على أخذهم، مدخر لهم جزاءهم.

- و هناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين، وابتلاء المؤمنين، لقد قدر الله تعالى أن يكون هذا العداء، وأن يكون هذا الإيحاء، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع؛ لحكمة:

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾. أي لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة. فهؤلاء يحصرون همهم كله في الدنيا، وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي، وينالون بالأذى أتباع كل نبي، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل. فيخضعون للشياطين، معجبين بزخرفهم الباطل، معجبين بسلطانهم الخداع. ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم، والشر، والمعصية، والفساد في ظل ذلك الإيحاء، وبسبب هذا الإصغاء. وهذا أمرٌ أراده الله تعالى كذلك، وجرى به قدره؛ لما وراءه من التمحيص والتجربة، ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له، ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس.

ثم لتصلح الحياة بالدفع، ويتميز الحق بالمفاصلة، ويتمحص الخير بالصبر، ويحمل الشياطين أزارهم كاملة يوم القيامة، وليجري الأمر كله وفق مشيئة الله تعالى. أمر أعداءه، وأمر أولياءه على السواء. إنها مشيئة الله تعالى، يفعل الله تعالى ما يشاء.

و المشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الجن والإنس من ناحية، وكل نبي وأتباعه من حياة أخرى، ومشيئة الله تعالى هي المهيمنة، وقدره النافذ من ناحية ثالثة. هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفةً قصيرة:

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون –شياطين الإنس والجن– تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة –هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه– خطة مقرر فيها وسائلها، ﴿ ...يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ... ﴾. يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية، وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بغضاً! وهي ظاهرة

ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهلة. إن الشياطين يتعاونون فيما بنهم، ويعين بعضهم بعضاً على الضلالة أيضاً! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً، ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه، والمضي في المعركة معه طويلاً.[1]

هذا ما أردت نقله، وفيما كتبناه كفاية في هذه الخاتمة. ونسأل الله تعالى حسنها، وأن يجعلها مرضية عنده، كافية لمن يطلع عليها، ومرضية عند كل ذي علم وإنصاف، ونقول له:

و إِنْ تَجِدْ عَيَّباً فَسُدِ الخَلَلَ * فَجَلَّ مَنْ لاَ عَيَّبَ فِيِّهِ وعَلا.**

و الله تبارك وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

١ في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الثالث، جـ٨، صـ١١٩٠-١١٩١.

الفهرس

ملخص البحث..... ٢٥٧

المقدمة..... ٢٥٨

..

خطتي في البحث..... ٢٥٨

منهجي في البحث..... ٢٥٩

موضوعا البحث..... ٢٦٠

الموضوع الأول من البحث: الاستهزاء بالدعاة إلى الله تعالى، وتشويه سمعتهم، ونصر الله تعالى لهم..... ٢٦٠

نبي الله نوح عليه السلام..... ٢٦٠

نبي الله هود عليه السلام..... ٢٦٨

نبي الله صالح عليه السلام..... ٢٧٤

نبي الله إبراهيم عليه السلام..... ٢٨٠

نبي الله لوط عليه السلام..... ٢٨٢

نبي الله شعيب عليه السلام..... ٢٨٣

رسول الله محمد ﷺ..... ٢٨٦

الموضوع الثاني من البحث: التهديد بالقتل، أو السجن، أو الطرد، ونصر الله تعالى لهم..... ٢٩٤

نبي الله نوح عليه السلام..... ٢٩٤

نبي الله صالح

عليه السلام..... ٢٩٥

نبي الله إبراهيم عليه السلام..... ٢٩٧

نبي الله شعيب عليه السلام..... ٣٠٣

نبي الله موسى عليه السلام..... ٣٠٦

نبي الله محمد

ﷺ..... ٣١١

الخلاصة..... ٣١٦

.

الخاتمة..... ٣١٩

.

الفهرس..... ٣٢٣